
أخى العزيز
من فضلك
اذا اعجبك الكتاب قم بشرائه

مع القرآن الكريم
الجزء الثاني

الناشر: دار الفاروق للنشر والتوزيع

☜ الحائزة على الجوائز الآتية ☞

جائزة أفضل ناشر ثقافي عام في مصر لعام ٢٠٠٤

جائزة أفضل ناشر للأطفال والناشئة في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة أفضل ناشر مدرسي في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة أفضل ناشر للترجمة من والى اللغة العربية في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة الإبداع في مصر لعام ٢٠٠٢ (الجائزة الذهبية)

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠١

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠٠

المركز الرابع كأفضل دار نشر على مستوى العالم

في مجال الترجمة في معرض فرانكفورت عام ٢٠٠٠

وسط البلد: ٣ شارع منصور - المبتديان - متفرع من شارع مجلس الشعب

محطة مترو سعد زغلول - القاهرة - مصر.

تليفون: ٧٩٥٣٠٣٢ (٠٠٢٠٢) - ٧٩٤٢٢٠٣ (٠٠٢٠٢)

فاكس: ٧٩٤٢٦٤٣ (٠٠٢٠٢)

العنوان الإليكتروني: **www.darelfarouk.com.eg**

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٥

عدد الصفحات ١٦٠ صفحة

رقم الإيداع ٨١٢٦ لسنة ٢٠٠٥

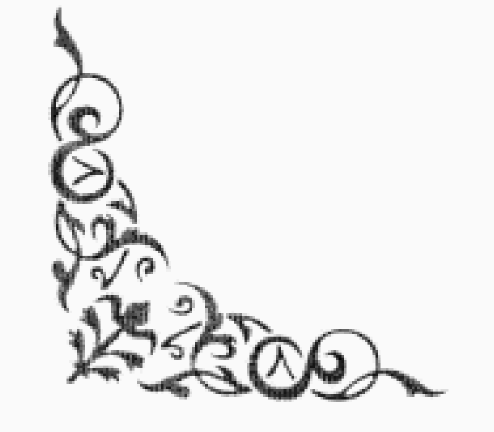
الترقيم الدولي: 977-345-939-x




مع القرآن الكريم

الجزء الثانى

فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
جاد الحق علي جاد الحق
رحمه الله




التعريف بالإمام الأكبر

فضيلة الشيخ جاد الحق

مولده ونشأته:

هو فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق، حنفي المذهب، ولد بجهة بطرة مركز طلخا محافظة الدقهلية في عام ١٩١٧م، حفظ القرآن الكريم وجوده بعد أن تعلم القراءة والكتابة بكُتاب القرية، ثم التحق بالجامع الأحمدي بطنطا في سنة ١٩٣٠م واستمر فيه حتى حصل على الشهادة الابتدائية في سنة ١٩٣٤م وواصل فيه بعض دراسته الثانوية، ثم استكملها بمعهد القاهرة الأزهري حيث حصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩٣٩م، بعدها التحق بكلية الشريعة وحصل منها على الشهادة العالية سنة ١٩٤٣، ثم التحق بتخصص القضاء الشرعي في هذه الكلية، وحصل منها على الشهادة العالمية مع الإجازة في القضاء الشرعي سنة ١٩٤٥م.

• مناصبه:

عمل فور تخرجه موظفًا بالمحاكم الشرعية، ثم أمينًا للفتوى بدار الإفتاء المصرية، ثم قاضيًا في المحاكم الشرعية، ثم تدرج في القضاء بعد إلغاء المحاكم الشرعية حتى أصبح مفتشًا أول بالتفتيش القضائي بوزارة العدل.

• منصب الإفتاء:

عين فضيلة الإمام مفتيًا للديار المصرية عام ١٩٧٨، فكرس كل وقته وجهده في تنظيم العمل بدار الإفتاء، وعمل على تدوين كل ما يصدر عن الدار من فتاوى في تنظيم دقيق حتى يسهل الاطلاع عليها عند الحاجة في أقل وقت ممكن، ثم توج

عمله بإخراج الفتاوى التي صدرت عن الدار في قرابة ثمانين عاماً من سجلات الدار حتى تكون في يد كل مسلم يريد الاطلاع عليها والاستفادة منها.

• وزارة الأوقاف ومشيخة الأزهر:

في يناير من عام ١٩٨٢ اختير فضيلته وزيراً للأوقاف، وفي نفس العام صدر القرار الجمهوري بتعيين فضيلته شيخاً للأزهر.

• إنتاجه العلمي:

لفضيلته العديد من الأحكام القضائية التي اشتملت على بحوث واجتهادات فقهية أخرجها طوال عمله بالقضاء، وكذلك البحوث الفقهية والتقارير الفنية في التفتيش على أعمال القضاة.

وقد تم نشر هذه البحوث في مجلة المحاماة الشرعية وغيرها من المجلات.

أما الفتاوى فثابتة بسجلات دار الإفتاء وبها مجموعة من الفتاوى الخاصة بأمور مستحدثة لم تطرح للبحث من قبل.

هذا بخلاف الأبحاث المطولة التي قدمها فضيلته في المؤتمرات التي شارك فيها أو التي ترأسها.

مقدمة الناشر

الحمد لله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، والصلاة والسلام على نبينا الهادي وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين وبعد.

إن الإنسان الحصيف يدرك أن القرآن الكريم قد كشف حجب الغيب الثلاثة: الماضي، الحاضر، المستقبل. فقد أخبرنا القرآن بقصص حدثت وقائعها في الماضي السحيق مثل قصة خلق آدم وسجود الملائكة له ورفض إبليس ذلك، ومثل قصص الأنبياء السابقين، وهي قصص لم يكن لرسول الله ﷺ علم بها، وأنى يكون له علم بها وهو الرجل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب؟

كما تحدث القرآن في كل المشكلات والمسائل التي واجهت المسلمين واعترضت حياتهم مثل موقف المنافقين تجاه الإسلام في المدينة، وحادث الإفك، والثلاثة الذين خلفوا، والمرأة التي جادلت النبي في زوجها، والعديد من المواقف الأخرى ثم أخبرنا القرآن أيضاً عن بعض الأمور المستقبلية مثل انتصار الروم على الفرس. قال الله تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ﴾[1]

وبالفعل تحقق وعد الله وانتصر الروم بعد هزيمتهم، وكان المسلمون يشعرون بالأسى والحزن لهزيمة الروم أمام الفرس؛ وذلك لأن الفرس كانوا أهل كفر يعبدون النار، أما الروم فكانوا أهل كتاب.

---

(١) الآيات ١:٤ من سورة الروم.

ومثل قوله - عز وجل - في سورة البقرة:

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (١)

وبالفعل كثر اللغط من جانب السفهاء بعد تحول القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام.

هذه مجرد أمثلة للحجب الثلاثة (الماضي - الحاضر - المستقبل) التي كشفها القرآن الكريم.

وهذا دليل يؤكد إعجاز القرآن، وأنه منزل من عند الله - عز وجل - وأنه لا يأتيه الباطل أبداً، فهو تنزيل من حكيم حميد. فإن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد. الذي لا يحوي بين طياته أي نسبة خطأ؛ وذلك لأن الله - عز وجل - هو الذي أنزله وهو الذي تعهد بحفظه وصونه.

قال تعالى:

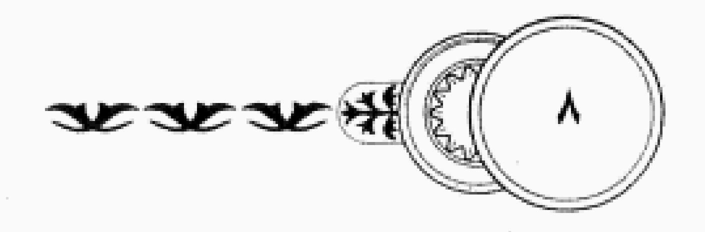
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

القرآن الكريم المعجزة الوحيدة الباقية

أيد الله - عز وجل - كل رسله بمعجزات تؤيد دعواهم وتجمع القلوب من حولهم فقد روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) الآية ١٤٢ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٩ من سورة الحجر.



«ما من نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله لي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا».

لكن كل معجزات الأنبياء السابقين - عليهم صلوات الله وسلامه - كانت معجزات حسية تُرى وتحس وتختفي بانتهاء أعمار الأنبياء مثل: (ناقة صالح - عصا موسى - مائدة عيسى).

أما القرآن الكريم فهو المعجزة الخالدة الباقية أبد الدهر وسيظل شاهداً على عظمة الإسلام وعلى قدر الرسول ﷺ؛ فتتوالى السنون والقرون، وتتغير الأحوال وتتبدل، وكتاب الله كما هو يهدي النفوس الحائرة، ويروي القلوب الظامئة إلى الإيمان، ويعالج كل مشكلات الحياة، ويزيد على ذلك أن العلماء يكتشفون به كل يوم الكثير من الإشارات إلى حقائق علمية لم يعرفها العلم إلا مؤخراً.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

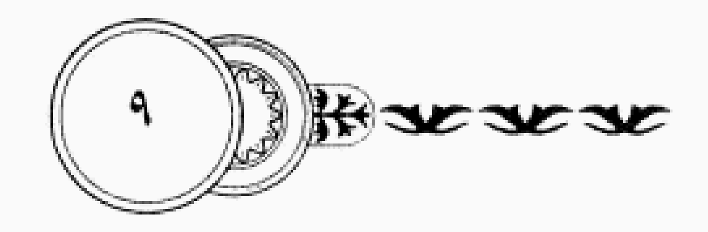
﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

وقد كان لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق وقفات طويلة مع هذا الكتاب المعجز وخاصة في الجانب الذي يتناول علاقة القرآن بالإنسان والأخلاق والمجتمع، كما تحدث فضيلته وأفاض عن العدل في القرآن وأدب الدعوة وسماحة الإسلام والعمل بالقرآن والسنة وحب رسول الله ﷺ؛ والرحمة بالمؤمنين، والكثير من الموضوعات المتعلقة بمقاصد القرآن وحكمة تنزيله منجَّماً وأساليبه المختلفة.

ودار الفاروق تعتز بإصدار هذه الوقفات في كتاب جامع لها تحت عنوان: **(مع القرآن الكريم)** حتى يكون مرجعًا لكل مسلم في حياته. ونسأل الله العون والسداد وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت.





من مقاصد القرآن الكريم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه وبعد:

فقد قال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾[1]

هذا القرآن وحي إلهي، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام على قلب رسول الله ﷺ ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً.

وعقيدتنا نحن المسلمين أنه الكتاب الجامع لمتفرقات الأصول وأشتات الحكم، حوى خلاصة سائر الكتب السماوية التي تقدمته، وآخى بين طبيعتي الإنسان، الجسدية والروحية، وأنه نزل للعالمين أجمعين.

لا جرم أن كتاباً هذا شأنه لا بد وأن يكون هادفاً إلى مقاصد، ومتوخياً في تعاليمه دستوراً، لتربية الإنسان تربيةً صحيحة، وإبرازه أمام الوجود بشراً سوياً، حاصلاً على كمال طبيعته الجسدية والروحية، متمتعاً بجمال حالتيه الصورية والمعنوية.

ووصولاً إلى هذا المقصد الأسمى بينت آيات القرآن مقاصده هدايةً للناس، ومن ثم كان هذا الوصف الجامع للقرآن في هذه الآية (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم..) فما هي مقاصد القرآن؟

---

(١) الآية ٩ من سورة الإسراء.

يمكن أن نشير بإيجاز إلى بعضها فيما يلي:

١- تأصيل أسس الإسلام وبيان أنه آخر الأديان، وأن الرسول محمداً ﷺ خاتم الرسل، وأنه أرسل إلى الناس أجمعين، نقرأ ذلك في قول الله سبحانه في سورة الأحزاب:

((مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ))[1]

وفي سورة سبأ:

((وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا))[2]

٢- الإسلام دين عام شرعه الله لربط الشعوب على اختلاف ألوانها وألسنتها، حيث محا الله به امتيازات الأجناس والعناصر، وقرر مبدأ المساواة العامة، وصرح بأن الإنسانية كلها أسرة واحدة، أصلها آدم وحواء، وقد صارت شعوباً وقبائل، للتعارف وتبادل المنافع، لا للتنازع والتقاتل.

ذلك قول الله سبحانه في سورة الحجرات مخاطباً بني الإنسان عموماً:

((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ))[3]

٣- لم يقصد القرآن بالنصح والإرشاد شعبًا معينًا ولا أمةً بخصوصها وإنما يخاطب النوع الإنساني بأسره لأنه دين عام، ذلك قوله تعالى في سورة الحج:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ ﴾[4]

ولم يرد في القرآن مرةً واحدة «يا أيها العرب».

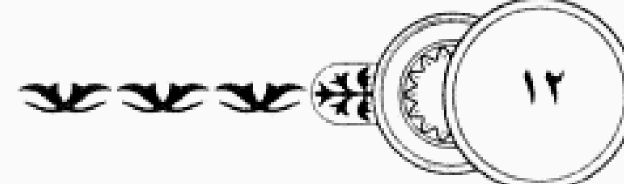
---

(١) من الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.

(٢) من الآية ٢٨ من سورة سبأ.

(٣) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٤) الآية ١ من سورة الحج.



٤- فيما يختص بالتشريع والأخلاق والاجتماع جاء القرآن بأصول وقواعد كلية تاركًا الجزئيات لاجتهاد أهله يستنبطونها من كتاب الله وسنة رسوله ووفقًا لمقتضيات الزمان والمكان، مثال ذلك فيما يختص بالشريعة تقرير مبدأي العدل المطلق والمساواة في قوله تعالى في سورة النساء:

((۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ))(١)

وعن مبدأ المساواة قال:

((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ))(٢)

وعلى الناس أن يستنبطوا لأنفسهم القوانين العادلة المستمدة من الأصول المبينة في القرآن والسنة مراعين أحوال الزمان والمكان والمصالح العامة.

ولقد قام المسلمون الأولون بذلك في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام، ولم يتوقفوا عن الاجتهاد لاستنباط أحكام ما استجد من واقعات إلا حين طرأ الضعف على الأمة وما يزال باب الاجتهاد مفتوحًا، وسيظل إن شاء الله لمن توفرت لديهم شروطه من العلماء الذين وصفهم الله في قوله:

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾(٣)

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة النساء.

(٢) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٣) الآية ١١٨ من سورة هود.



ذلك أنه لا يستطيع أحد أن يهدي أحداً إلى مذهب أو دين إلا بإذن الله.

نرى هذا مقرراً واضحاً في قول الله لرسوله محمد ﷺ في سورة القصص:

((إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ))[1]

وقال في سورة يونس:

((أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ))[2]

وهكذا علَّم القرآن المسلمين: أن اختلاف الأديان شيء واقع بإرادة الله وحكمته، وأنه تابع لدرجة نضج العقول والمدارك، وأن إنساناً لا يستطيع هداية إنسان إلا بإذن الله، وأن ليس لأحد سيطرة على قلب أحد، وليس لأحد أن يكره أحداً على الإيمان.

نرى هذا واضحاً في قول الله سبحانه في سورة الغاشية:

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]

وقوله في سورة ق:

((وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ))[4]

وقوله في سورة الأنعام:

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٩٩، الآية ١٠٠ من سورة يونس.

(٣) الآية ٢٢ من سورة الغاشية.

(٤) من الآية ٤٥ من سورة ق.

((قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ))[1]

وبهذا البيان من الله في القرآن ارتفع الحقد من قلوب المسلمين بسبب اختلاف الدين مع غيرهم، وحلت الرحمة والألفة وحسن التعامل مع أهل الأديان الأخرى.

ذلك قول الله في سورة الممتحنة:

﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2]

وحتى مع وقوع الحيف من غير المسلمين يأمر الله المسلمين بالتزام العدل في التعامل معهم. ذلك قول الله في سورة المائدة:

((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗا))[3]

ولقد وصى القرآن المسلمين بالعدل حتى في مواطن القتال.

---

(١) من الآية ٦٦ من سورة الأنعام.

(٢) الآيتان ٨ و٩ من سورة الممتحنة.

(٣) من الآية ٢ من سورة المائدة.

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾[١]

هذا عدل الله ونوره الذي أفاضه على أمة الإسلام في القرآن ولم تصل إليه أمة أخرى في الماضي والحاضر.

٦- ليس في الإسلام رئاسة دينية، تحتكر الحل والعقد في أصول الدين وفروعه، وإنما فيه الدعوة إلى تخصص طائفة تتفقه في الدين وأصوله. ذلك قول الله سبحانه في سورة التوبة:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢ ﴾[٢]

وفي سورة النساء قول الله تعالى:

((وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ))[٣]

فالعلم بالإسلام أصوله وفروعه ينبغي أن يكون شائعًا بين المسلمين ليس اختصاصًا لأحد، وإن كان لابد من وجود طائفة متخصصة، تكون المرجع للمسلمين في التعرف على أحكام الإسلام تخصصًا وليس اختصاصًا.

٧- الإسلام ذم الجمود، ونهى عن التعصب للوراثة.

ذلك قول الله في سورة الزخرف:

---

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٨٣ من سورة النساء.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ (١)

ثم بالقول الفصل قضى الإسلام على التقليد وعلى المقلدين ونصح بالنظر في الكون وتعرف أسرار هذه المخلوقات فقال الله في سورة الروم:

((قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ))(٢)

وقال في سورة الحج:

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (٣)

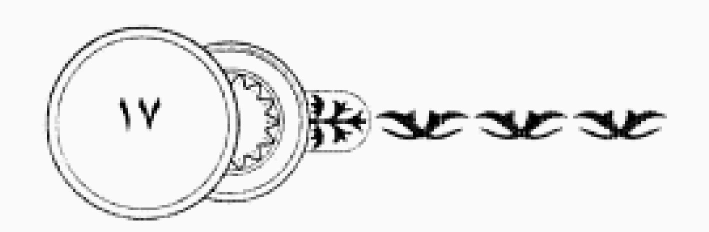
٨- لقد جاء الإسلام على فترة من الرسل وكان الناس قد فرقتهم الأهواء والعصبيات، واتبع الرسول أفراد قلائل كانوا يخافون على دينهم حتى قال قائلهم:

"أترى يجيء علينا وقت نعبد الله فيه لا نخشى غيره؟"

فأنزل الله على رسوله قوله في سورة النور:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (٤)

(١) الآية ٢٣ من سورة الزخرف.
(٢) من الآية ٤٢ من سورة الروم.
(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج.
(٤) الآية ٥٥ من سورة النور.



ولقد صدق الله وعده فانتشر الإسلام وامتلأت به جنبات الأرض.

ونحن ـ المسلمين ـ نترقب تحقيق وعد الله الذي قد بدت بوادره لتعم آيات الله الآفاق جميعاً. ذلك قول الله في سورة فصلت:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

نعم: إن وعد الله حق لا يتخلف، ولا يختلف.

ذلك الدين الحق قال الله تعالى:

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢)

٩- ذلك هو الإسلام في مقاصده وتربيته للإنسان. فيه تطهير لنفس الإنسان، وتصحيح لسلوكه ليعيش تقيًا، نقيًا يعمر الدنيا وتعمر به على أساس من التقوى والعلم والحكمة والمساواة. ذلكم القرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. حوى لكم علوم الدين ودستور الحياة الصالحة، فاتبعوه تهتدوا وتسعدوا، واحكموا به تعدلوا، ولا تعدلوا عنه فتهلكوا.

((إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا))(٣)

---

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٢) الآية ٨٨ من سورة ص.

(٣) من الآية ٣ من سورة الطلاق.

من أساليب القرآن في بيان العقيدة وتثبيتها

جاء القرآن الكريم بأساليب شتى في إقامة الحجة على العقيدة الإسلامية الصحيحة وبيانها، حتى يسهل على الناس فهمها، وبه وفيه من المقومات المهدات ما يجعل الإيمان راسخًا قويًا، ويجعل المؤمن متفانيًا في سبيل دعوته، مضحيًا بالمال والولد والنفس في إعلاء كلمة الله.

وقد سلك القرآن مناهج شتى في توضيح عقيدة الإسلام، وإقامة أركانها وتثبيت دعائمها بالحجة والبرهان، ففي القرآن الكريم:

((لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا))[1]

وبهذا ينبه العقل ويشحذه إلى التفكير والتدبر في هذا العالم وما حوى من المخلوقات، ويذكره بأن هذا الكون لو لم يكن له إله واحد، أو لو كان له إله غير الله لاختل نظامه، وتهاوى بنيانه، لأن الشركاء دائمًا إلى اختلاف.

ومن هنا: نراه يصرف الآيات في قصص الأولين، فيعرض ما كانت عليه الأمم السابقة ليدلنا على عبر التاريخ وأهمية هذا العلم، وإعانته الناس على تصحيح مسار حياتهم، وعقيدتهم، والانتفاع بتجارب من سبقوهم:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]

ولم تكن الوقائع التي أبرزها القرآن في قصص الأولين مقلدة لما رواه أهل الكتب السابقة، وإنما جاءت كاشفة للمواقف محققة للأحداث، وقد أنبأ القرآن الكريم:

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٤٤ من سورة آل عمران.

((تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ))[1]

بظهور دعوة الإسلام، وبلوغ الرسالة، وبحفظ القرآن الكريم ذاته من كل عوامل النسيان والاختلاف والتحريف بل والضياع بالرغم مما لاقى رسول الله ﷺ من عنت وإيذاء، وصد عن ذكر الله وعن الاستماع اليه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2]

حتى إذا ما استقرت العقيدة في نفوس وقلوب من شرح الله صدورهم للإسلام فـآمنوا بالله ورسوله تولاهم القرآن يزكيهم ويطهرهم بالصلوات والزكوات وبالعبادات، ويجعل لهم في كل خير أجراً مضاعفًا، وينهاهم عن الشرور والآثام، تعديلاً لسلوكهم واستقامة بهم على الطريق:

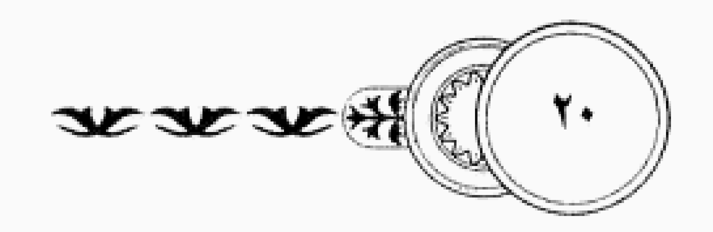
﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[3]

ولم يكن القرآن حين قص على الرسول ﷺ وعلى أمته أنباء من سبقوهم من الأمم، يهدف إلى مجرد القصص التاريخي وإنما كانت أنباء الأمم السابقة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بغاية الدعوة ورسالتها، منبهةً إلى سنن الله في الوجود الكوني والإنساني وقد تابعت آياته تصوير حضارات السابقين التي بادت واندثرت مع بيان العوامل التي أدت إلى زوالها:

(١) من الآية ٤٢ من سورة فصلت.

(٢) الآية ٩ من سورة الحجر.

(٣) الآية ١٠٨ من سورة يوسف.



﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾[1]

ذلكم القرآن:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾[2]

على مائدته نشأت علوم فقه فيها الأولون، وفتح الله عليهم فأبانوها وقيدوها وتدارسوها حتى ازدهرت وتواتر نقلها إلينا وكانت علوم القرآن، وحضارة الإسلام والمسلمين.

ذلكم الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[3]

كلام الله الذي يتلوه البشر اختص الله شهر رمضان بإنزاله فيه:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[4]

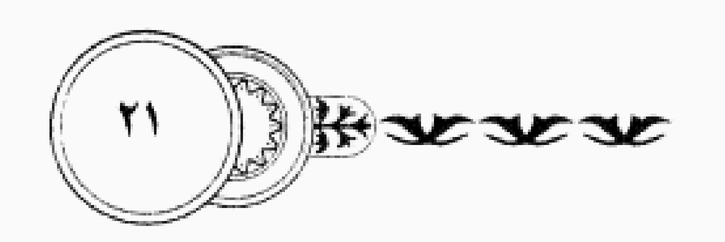
---

(١) الآية ١٠٠ من سورة هود.

(٢) الآيتان ١٩٢ و١٩٣ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٤) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.



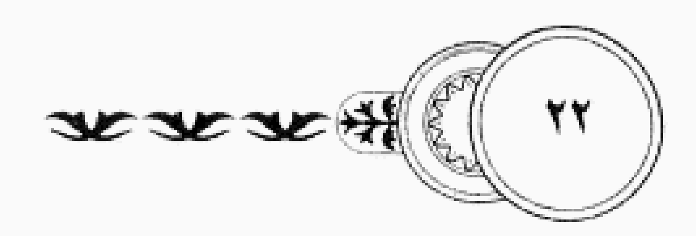
أفلا نقيم حقه ونبتغي أجره، أفلا نجتمع عليه ونقيم المجالس له، أفلا نستجلي حكمه، ونستلهم الرشد من آياته؟ بلى ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ بقوله الحق: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي"[1]، أفلا يكون هذا الوعد الصادق حافزًا لنا لأن نعود إلى الله ونتبع آياته؟ وإلى سنة رسوله نسترشدها وإنها لراشدة مرشدة، أفلا نسارع إلى الخير الذي اختص الله به هذه الأمة «القرآن» نتلوه ونحفظه، ونعمل به أفراداً وجماعات وحكومات فمن ابتغى الرشد في غيره أضله الله.

إن الله جمع لهذه الأمة من عناصر الوحدة والوفاق ما لم يجتمع في أمة أخرى: كتاب واحد محفوظ من التبديل والتغيير، قبلة واحدة، يتجهون إليها في الصلاة، شهر واحد يصومونه مهما تباعدت أقطارهم، حج في أشهر معلومات، بيت يرضيهم فيه ربهم ويرضى عنهم، شريعة واحدة لا فضل فيها لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود أو أحمر إلا بالتقوى.

إن هذا القرآن يجمعكم أيها المسلمون على مائدة الله التي تقود إلى الحياة العزيزة الكريمة ألا فاجتمعوا وتذاكروا آيات الله في مساجدكم وفي بيوتكم، وفي نواديكم، فرادى وجماعات لعل الله يهيىء لنا من أمرنا رشدا.

---

(١) أبجد العلوم للقنوجي – المجلد الأول: الوشي المرقوم، في بيان أحوال العلوم.



هذا هو الإسلام

(حكمة تنزيل القرآن الكريم منجماً)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[1]

تحدثنا من قبل أن القرآن الكريم في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب الذي في أيدي المسلمين وأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر جملة واحدة.

ثم كانت الآيات تتنزل منه شيئًا فشيئًا حسب الوقائع في حياة النبي ﷺ، وحسب الحاجة في حياة المسلمين.

والذي يدل على ذلك، أي على أن القرآن نزل إلى السماء الدنيا جملةً واحدةً في ليلة القدر قول الله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾[2]

ومن المعلوم: أن القرآن لم ينزل إلى الأرض كله في ليلةٍ واحدة، ولكنه أنزل إلى السماء الدنيا، ثم تنزلت الآيات إلى الأرض تفصيلاً بعد ذلك.

قال تعالى في سورة الإسراء:

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الفرقان.

(٢) الآية ١ من سورة القدر.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ (١)

وقال سبحانه في سورة الفرقان:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢)

فقد أشارت هذه الآيات الكريمة إلى حكمة تنزيل القرآن الكريم منجما، مفرقًا: الآية بعد الآية، والسورة بعد السورة عند الحاجة إليها، وعند المناسبة لنزول حكمها.

وقد جاء في الأثر عن أبي عبيد عن ابن جريج قال: "(جاء أعرابى إلى عائشة رضي الله عنها، فقال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك. قالت: ولِمَ؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه ـ أي لعلي أرتب سور القرآن عليه ـ فإنا نقرؤه غير مؤلف، أي غير مرتب السور مثل ترتيب السور في مصحفك.. قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل؟ إنما نزل أول ما أنزل من القرآن سور المفصل – أي السور المكية القصار – فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكة على رسول الله ﷺ وإني لجارية ألعب:

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣)

(١) الآيتان ١٠٥ و١٠٦ من سورة الإسراء.

(٢) الآيتان ٣٢ و٣٣ من سورة الفرقان.

(٣) الآية ٤٦ من سورة القمر.

وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده.

قال الراوي: فأخرج المصحف، يعني أخرج مصحفه، فأمليت عليه آي السور - أي أمليت عليه ترتيب السور."[1]

وفي رواية: لو نزل لا تربوا، لقالوا: لا ندع الربا.[2]

وفي هذا الحديث إشارة إلى حكمة تنزيل القرآن مفصلاً، وهي التدرج في نزول الوحي والشرع الإلهي.

فقد بدأ القرآن بتثبيت العقيدة بالله واليوم الآخر. وتمكين هذه العقيدة في النفوس، ثم تلاها آيات التشريع، بتفصيل الأحكام.

كذلك: أشارت الآيات إلى حكمة التنزيل تفصيلاً، وهو أن يكون الوحي مجدداً، وأن يتكرر نزول الملك به، فيكون ذلك أدعى إلى تقوية الرسول ﷺ بما يتكرر من لقاء الملك له وسروره به، وشعوره بالعناية الربانية.

كذلك: فإن في تفصيل الآيات تيسيراً عليه من الله في حفظ القرآن وفهمه ومعرفة أحكامه.

وهذا هو معنى قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[3]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه.

(٣) الآيتان ٣٢ و٣٣ من سورة الفرقان.

كما أن في هذا التفصيل تثبيتًا للمسلمين أنفسهم عند الضوائق والمحن، فلا يغيب عنهم الوحي فييئسوا أو ينسوا.

ولا شك أن في تتابع الوحي تثبيتًا للمسلمين وتثبيتًا للأحكام في أذهانهم، وحفظًا للآيات في وجدانهم.

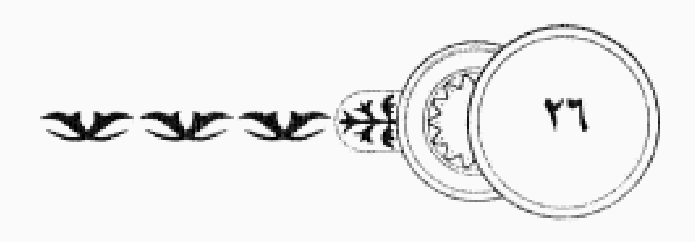
وقد يشير إلى هذا قول الله تعالى:

((وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ))[1]

وتثبيت الأحكام إنما يأتي بتطبيقها في حياة الناس، واعتياد السير عليها تدريجيًا فتصلح بها أولاهم وأخراهم، والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) من الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.



الإسلام دين الأخلاق

إن للشريعة الإسلامية خمسة مقاصد، تستلزم من الفرد ومن المجتمع الحفاظ عليها وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وهذه المقاصد متى تحققت كان عليها نماء الحياة وازدهارها.

والحفاظ على النفس وعلى العقل وعلى النسل يكون بأمور وقائية وبأخرى طبية.

ومن ثم كان علم الطب بشتى فروعه يهدف إلى حفظ كل من النفس والعقل والنسل وهذه الثلاثة هي الوسيلة إلى حفظ الدين والمال فالطب علم نافع والعلم النافع هو كل معرفة تزيد الإنسان صلة بالله سبحانه وتعالى وتمكنه من القيام بواجبات استخلافه في الأرض لإعمار هذه الحياة وإقامة العدل والإحسان فيها.

لقد كرم الله سبحانه الإنسان جسداً ونفساً وعقلاً حياً، وفرض احترامه ميتاً فقد حدثت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: "كسر عظم الميت ككسر عظم الحي في الإثم" ويقول في حفظ حياة الإنسان في حديث ابن عمر رضي الله عنه الذي رواه الترمذي وغيره "لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم".

والإسلام قد جعل الأخلاق الحميدة بوجه أصلاً من أصوله حيث امتدح القرآن رسول الله ﷺ فقال الله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾[1]

وقد اصطلح أهل العلم على أن لكل علم آدابه وأخلاقه - ونحن اليوم بين الأطباء نشير إلى أن الإسلام قد دعا إلى الرفق بالمرضى والمعوقين والبشاشة في

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم.

وجوههم تخفيفًا لكربهم وأمانًا لقلوبهم وإلى إحسان معاملتهم رفعًا لروحهم المعنوية ولغرس الأمل والثقة في الشفاء في نفوسهم.

وإلى هذا يشير قول الرسول ﷺ: "إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئًا وهو يطيب بنفس المريض".(١)

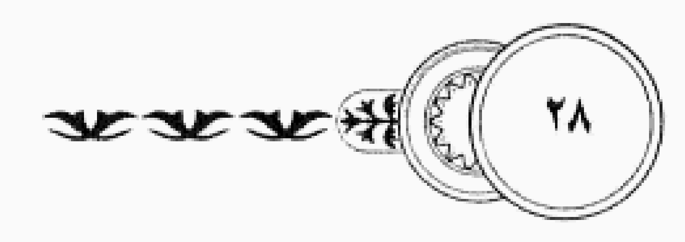
ومهمة الطب حفظ النفس ورد الصحة المفقودة بإزالة المرض أو وقفه. وإذا كان لأناة الطبيب ورويته الفضل الكبير في اكتشاف الداء والاهتداء إلى الدواء الناجح، فإن لابتسامة الطبيب - كذلك - في وجه المريض وحسن معاملته إياه وإدخاله السرور عليه أثرا جميلاً وكبيراً في نفسه، يخفف ذلك كثيراً من آلامه ويسارع به إلى البرء من أسقامه.

وقد نُقل أن أبا بكر الرازي – الطبيب العربي المشهور الذي مات منذ أكثر من ألف عام – كان ينصح الأطباء بأن يبذلوا ما في وسعهم لإدخال السرور على نفس المريض وإفهامه أن مرضه غير خطير وأن صحته جيدة، ونحو ذلك من كل ما يُدخل الطمأنينة على نفسه ويُنزل السكينة على قلبه. إذا نجح الطبيب في ذلك، استغنى عن استعمال كثير من العقاقير، لأن للعقيدة تأثيراً كبيراً في الصحة، يعرف ذلك علم النفس وعلم الأخلاق.

فالإسلام قد سما بقيمة الإنسان فحفظها، وبخلقه فصانه، وزانه بكل الخصال المحمودة وعُنِيَ بنقاء نسبه فاحتاط له، حتى يتوالد بنو الإنسان في نطاق الزواج المشروع الذي نظم ضوابطه ووثق عروته وحظر أن ينسب المولود إلى غير أبيه، وحذر المرأة أن تُدخل على زوجها نسبًا ليس منه، وأن أولى أخلاقيات العلماء، الشعور بالمسؤولية تجاه هذه الإنسانية، فلا يسعون إلى هدم ما بناه الله، ومن أمانة العلم أن يقف العالم عند ما يعلمه علم اليقين ولا يُقدم على ما كان علمه فيه مجرد ظن وتخمين.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.



وإذا كان العلم التطبيقي قد ساد عصرنا وظهرت له نتائج باهرة، فإن الإسلام يدعو إلى حماية الإنسان من أن يكون حقل تجارب في أي طور من أطوار وجوده، فإنه كما سلف، قد بناه الله وخلقه وصوره وغذاه ورباه وهو في قراره المكين.

وإذا كان لكل علم خُلقه فأولى بأهل الطب وعلمائه أن يذكروا دائمًا أنهم يتعاملون مع الإنسان خَلقًا وخُلقًا.

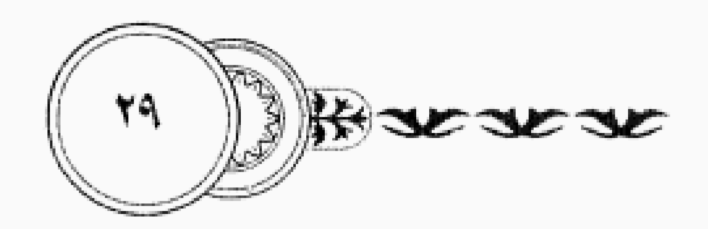
هذا وعلم الوراثة من العلوم الذي انبهر بها بعض العلماء في هذا العصر وغاب عنهم قول الله سبحانه:

((وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا))(١)

وظن العلماء أنهم بما علموا يستطيعون التدخل لتخليص الإنسان من بعض ما يعاني من أمراض أو اضطرابات في التكوين العقلي والجسدي بسبب الوراثة، بل والسعي إلى تحسين السلالة بالتخلص أو الوقاية من بعض الأمراض الوراثية، وهذا في تقديري تدخل خطير قد يقلب موازين حياة الإنسان. وخير لهذه البيئة الإسلامية أن ترعى قواعد الإسلام التي أجملها الرسول ﷺ في حسن اختيار كل من الزوجين للآخر ومعايير هذا الاختيار، ويغني ذلك عن التدخل غير الموثوق بتجارب إن نجحت في بعض أنواع النبات وصنوف من الحيوان قد لا تنجح في الإنسان. إذ إن الصفات الوراثية من الذكاء والغباء والطول والقصر والجمال والقبح والعقم والإخصاب تعاقبت في أجيال، فلا ينهيها في لحظات مشرط أو مِحْقَن. وإنا لنأمل للبحث العلمي أن يثري الإنسانية وحياتها بما يفيد ولا يبيد ويرفع قيمة الأخلاق الفاضلة وعمادها الأمانة.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.



٧

قال الله تعالى:

((۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ))[1]

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة النساء.



الأسس التي تقوم عليها الأخلاق في الإسلام

إن الإسلام قد عُنِيَ بالأخلاق لأنها صمام الأمن والأمان في المجتمع الإنساني، ولذلك عرض القرآن الكريم للأسس العامة للنظام الأخلاقي في ناحيتيه النظرية والعملية، ولم يهمل الإسلام الفطرة التي فطر الله الناس عليها ومن هذه الفطرة الأخلاق. قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ ﴾[1]

ولما كان انبعاث الأخلاق في النفوس الإنسانية فيه العادة والوراثة وأثر البيئة ومتاعب الحياة وشواغلها، كان لا بد من بعث الرسل إلى الناس يهدونهم إلى الحق والخلق الذي غفلت عنه بصائرهم وأبصارهم. ومن أجل هذا اهتمت تعاليم الإسلام بجوانب عديدة من الأخلاق، فوجه الإسلام الفرد المسلم إلى كثير مما يجب أن يستقر في نفسه من القواعد العملية للأخلاق ودعاه إلى معرفة ما يجهله من أهل الذكر وأوجب عليه متى تعلم علمًا نافعًا أن يعلمه لغيره وأمر بصقل النفس وتطهيرها وبالاستقامة على طريق الله وبالعفة والاحتشام وغض البصر عن المحرمات وبالتصون عما ليس في يده من متع الحياة والبعد عن مداومة النظر وامتداد البصر إلى ما ليس له أو لا يستطيعه قال الله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ ﴾[2]

---

(١) الآيتان ٧ و٨ من سورة الشمس.

(٢) الآيات من ١: ٧ من سورة المؤمنون.

في هذه الآيات القرآنية وصايا وأخلاق تسمو بالإنسان إلى المثل العليا التي ترقى بالفرد وتنقيه وتصله بربه وبمجتمعه. وفي القرآن أمر بالتحكم في الهوى وبالامتناع عن شهوات البطن والفرج في أوقات الصوم، بل وفي الوقت الذي لا تصلح فيه الزوجة للمباشرة، حرصًا على تطهير المؤمن والمؤمنة من تلك الشهوات وتنظيمها ثم يخاطب المؤمن نفسه الذي ينفق المال في السراء والضراء والذي يكظم الغيظ ويعفو عمن أساء إليه. كما يُمَجِّد القرآن المؤمن الصدوق الرقيق المتواضع الذي يجتنب الكثير من الظن لأن بعض الظن إثم ويدعوه إلى التثبت مما يُلقى إليه من أخبار وأنباء ولا يتتبع عورات الناس ويجتنب سوء الظن بهم ويكون صبورًا عند الشدائد، متأسيا بعباد الله الصالحين الصابرين والأنبياء المجاهدين ووسطًا في كل شيء. إذا أنفق، لم يسرف ولم يقتر وكان بين ذلك قوامًا وإذا باع أو اشترى، أقام الوزن بالقسط ولم يخسر الميزان، ومع هذا فهو دائب على العمل الصالح. والإسلام بَيَّن لتابعيه مع هذا الجانب السوء من الأخلاق، فنهى عن الكذب والنفاق والبخل والإسراف والرياء والتكبر والاختيال والانتحار ماديًا وأدبيًا، ونهى عن الحسد والطمع والزنا وتعاطي الخمر والخبائث. كما عرض الإسلام للأخلاق الأسرية، فأمر بالإحسان إلى الوالدين وإلى الأولاد وإلى الأُصول والفروع وأبان حقوق كلٍّ فردٍ قبل الآخرين والواجبات الزوجية، فَبيَّن الحلال والحرام ووصى بالمودة والرحمة بين الأزواج، وأوضح الحقوق المتقابلة وكيف يعالج الشقاق بينهما وأحكام الفراق وتوابعها وحقوق ذوي القربى والأرحام وأحكام التركات والوصايا. وخاطب الإسلام أيضًا الجماعة الإسلامية بما حرمه وحظره عليها وبعقوبات على انتهاك هذه المحرمات، فقد حرم قتل النفس بغير حق والسرقة والفسق والربا والظلم وأكل المال بالباطل وإيذاء الجماعة والأفراد وشهادة الزور وكتمان الشهادة بالحق وقالة السوء وسوء معاملة الضعفاء من الفقراء والمساكين واليتامى

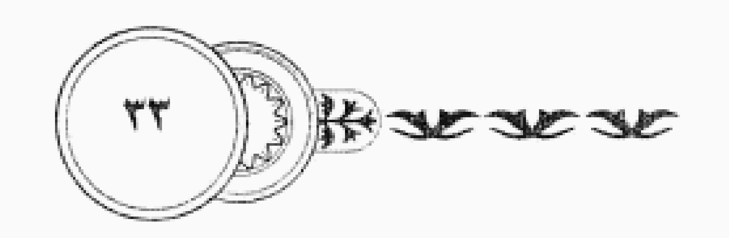
والسخرية من الغير واحتقاره والغيبة والنميمة والقذف والشفاعة الضارة، وأمر الإسلام الجماعة الإسلامية بالوفاء بالعهد وتنظيم العقود وبالشهادة الحقة وبالتدخل للإصلاح بين المتنازعين والمودة والتراحم وبالدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر وبالأخوة والعدل والإحسان. وفي الآداب العامة حمى الإسلام سكن الغير، فمنع دخوله إلا بإذن وبخفض الصوت والأدب مع الكبار وبالتحية وردها بأحسن منها أو بمثلها وحسن المجلس وأدب الجلوس وأدب الحديث. بل وعلَّم الحكام إحسان الخلق مع المحكومين، فأمر بالشورى وتحقيق العدل والعدالة وصون الأموال المملوكة للدولة ووضع قواعد وأخلاق إقرار النظام وحمايته، وحمى الأقليات داخل المجتمع الإسلامي، كما نبه على تجنب الفساد والمفسدين وموالاة الأعداء، وغير هذا من أخلاقيات التعامل في المجتمع. ولم يترك الإسلام بَنِيهِ دون أن يربطهم قلبيًا وعمليًا بالله رب العالمين، ونزل القرآن فبصرهم بالإيمان به وبشكره على نعمه، وحثهم على التسليم والرضا بقضائه، وابتعد بهم عن اليأس والقنوط من رحمته ومع هذا أمرهم بالتوكل عليه والتوبة إليه والوفاء بعهد الله.

هذه جولة في أسس الأخلاق في الإسلام ندعو الله أن يوفق المسلمين للتحلي بهذه الأخلاق أفرادًا وأسَراً ومجتمعاً وحُكامًا حتى نكون كما قال الله تعالى:

((كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ))(١)

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران.



القرآن والأخلاق

ومن الأخلاق التي حذر القرآن منها التفرقة في الدين، في سورة الأنعام قول الله سبحانه:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1]

وفي السورة نفسها قول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[2]

هاتان الآيتان وغيرهما تقرران أن الدين الحق واحد لا يحتمل انقساما ولا حزبية، وقد احتويا على أمرٍ للنبي ﷺ ولأمته بالاستقامة على الحق والبعد عن طريق الفرقة والبغي والهوى. ولقد أشارت الآيتان وأمثالهما – مما جاء في هذا المبدأ الاجتماعي الإسلامي – إلى آثار الحزبية على الدين من إشاعة التعصب وإعجاب كل امرىء برأيه والتنازع والكيد وتعطيل أوامر الله وتشويه الحق والمكابرة فيه، الأمر الذي يودي بوحدة الأمة ويهز كيانها.

ولقد ساق القرآن في مواضع عديدة مثلاً اختلاف الأمم السابقة في دينها وعلى أنبيائها، موضحاً أثر ذلك على زوال هذه الأمم.

وفي السنة أحاديث وفيرة تحذر من الانقسام وتنبه إلى أن الطريق المستقيم واحد. ومن هذا: ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود قال: "خط

---

(١) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام.

الرسول ﷺ خطًا بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيمًا وخط عن يمينه وشماله ثم قال هذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه".

ثم قرأ قول الله سبحانه:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١)

ولا شك أن هذا ينبغي أن يقود المسلمين إلى استدامة النظر فيما آلت إليه خلافاتهم وظهور الفرق والجماعات التي صرفت وتصرف جهود الأمة عن التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وذلك بإذاعتها أفكارًا وأحكامًا تزرع الخلافات وتنميها، وتشغل المجتمع بقضايا فكرية باسم الإسلام وشريعته، وهو في غنى عن إثارتها.

وواجب الأمة أن تتجاوز الخلافات في تفسير النصوص، فلا تجعلها قضيةً أساسيةً وحزبيةً دينيةً، وعلى هؤلاء الذين اعتزلوا المجتمع وانغلقوا على أفهام في الدين غير رشيدة أن يتلقوا العلم عن أهله وألا يتبعوا الهوى فقد قال الله سبحانه في سورة الأنعام:

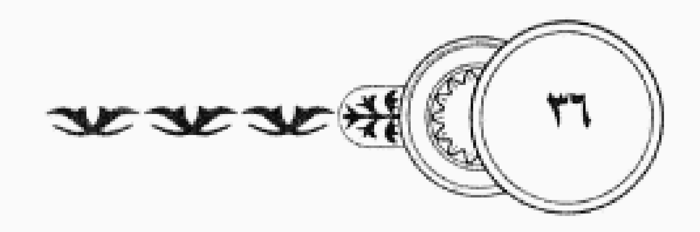
((وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ)) (٢)

ولعلنا حين نتابع آيات القرآن في الأخلاق العامة نجد أنها تقرر:

١- إن صلاح المجتمع وفساده منوط بوجه عام بما تكون عليه أخلاق أفراده وأولي الأمر فيه من صلاح وفساد.

(١) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ١١٩ من سورة الأنعام.



٢- وإن التمكن في الأرض من حظ المجتمع الذي يتكون في الغالب من أفراد صالحين متمسكين بمكارم الأخلاق وفاضل العادات وحسن الاستعداد والتزام الحق والعدل، وما يشذ في الواقع عن هذه القاعدة هو من قبيل الاختبار والإمهال والاستدراج.

٣- وإن فساد الأخلاق والعادات غالبًا ما يكون وافدًا من خارج الأمة بتقليد للغير أو بغزو عسكري أو ثقافي وقد أخبر القرآن في هذا الصدد قول ملكة سبأ:

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]

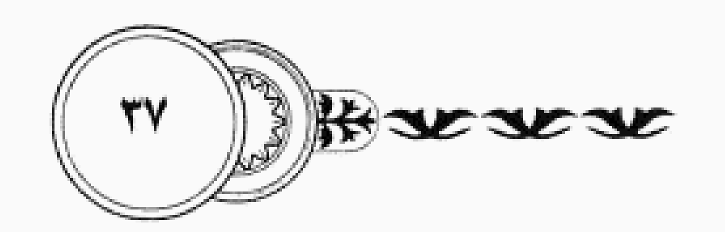
إن الأخلاق والعادات الوافدة الفاسدة في أغلب الأحوال تسود وتؤتي ثمارها في إضعاف وحدة المجتمع وقطع روابطه الاجتماعية والدينية والسياسية وهذا لا يتأتى دفعه إلا باستمساك المجتمع بدينه وأخلاقه وسماته، فلا تجرفه عادات وأعراف من تغلبوا عليه سياسيًا أو عسكريًا أو ثقافيًا أو اقتصاديًا، وسيندحر الباطل مهما برزت مظاهره متى صمد الحق وثبت.

٤- وهذا يوجب على المجتمع الإسلامي أن يستلهم عاداته وتقاليده من عقيدته وشريعته وأن يكون هدفه هو الحق والعدل والخير والمصلحة العامة، وما يختلف عليه يُرد إلى الله ورسوله كما أمر القرآن في قوله تعالى في سورة النساء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[2]

---

(١) الآية ٣٤ من سورة النمل.
(٢) الآية ٥٩ من سورة النساء.



٥- أوجب القرآن على الناس التروي والأناة في رواية الأنباء واستماعها خشية النية الخبيثة والقصد السيء ولما يترتب على الإسراع في تصديقها وإذاعتها من المفاسد والأضرار العامة والخاصة، وأبلغ صورة لبشاعة التسرع في نقل الأنباء حديث الإفك الذي جاء في سورة النور في الآيات التي بدأت بقول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾(١)

وأنهت الآيات هذا الحديث الخطير بقول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾(٢)

على هؤلاء الذين يخترعون أخبار السوء ويذيعونها أن يرعوا الله فيما أمر به وفيما نهى عنه فهو سبحانه القائل في سورة ق:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾(٣)

والشائعات الضارة أو كل قول غير صحيح أيًا كان مظهره صالحًا أو طالحًا ولكنه يخالف الواقع ما هي إلا فتنة عامة، على المجتمع أن يحذرها وأن يوقفها ذلك قول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال:

---

(١) الآية ١١ من سورة النور.
(٢) الآية ١٩ من سورة النور.
(٣) الآية ١٨ من سورة ق.

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾[1]

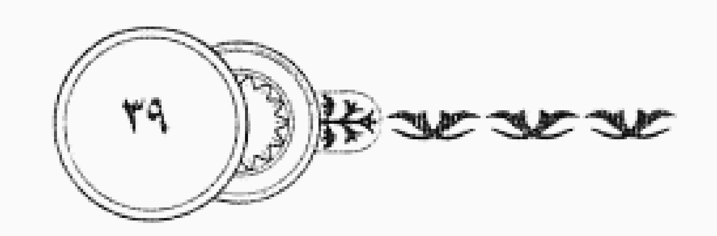
وهذه الآية تنبه إلى خطر آفات اللسان لا سيما في ظروف الفتن وشائعات السوء لما يترتب عليها من أضرار عامة وخاصة، وعلى المجتمع الإسلامي أن يقف من الشائعات ومثيرها موقفًا حازمًا وأن يتضامن أفراده وهيئاته في قمعها وتفادي آثارها.

٦- كما أن القرآن حذر من التفرق في الدين جريًا وراء الهوى والمطامع السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، حذرًا من أن يؤدي التفرق في الدين إلى المفاسد الاجتماعية التي لا تحمد عقباها أو التي لا يحسن السكوت عليها.

وعلى أولي الأمر في الأمة بدءًا من الأسرة بذل الجهد للقضاء على الانقسامات الدينية والخلافات التي نشأت أو تنشأ عن الخلافات المذهبية في الفقه أو في العقيدة.

هذه مبادىء من أخلاق القرآن التي أهداها إلى أمة الإسلام لتكون أمةً وسطًا يقتدى بها ويُهتدى.

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال.



القرآن والإنسان

إن القرآن قد تحدث عن الإنسان في آيات عديدة في سور مختلفة. ففي سورة البقرة تحدث القرآن عن خلافة آدم في الأرض وعما دار من حوار بينه وبين الملائكة على نحو ما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]

ولقد أشارت هذه الآية والآيات التالية إلى عدة حقائق.

إحداها:

إن الإنسان خُلق ولديه استعداد للعلم، أي علم الكون وما فيه، لأن الله سخر له الكثير مما خلق. ولا يتحقق ذلك التسخير إلا إذا كانت لديه القدرة - بخلق الله - على العلم به.. ولذلك أنبأ الملائكة بأسماء الأشياء قال الله تعالى:

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2]

الحقيقة الثانية:

إن الإنسان خلق مستعدا لقبول الإغراء والإغواء. ومن ثم أغرى إبليس آدم وحواء بالأكل من الشجرة مع أن الله قد نهاهما عن الأكل منها. ولكنهما تحت تأثير ذلك الإغراء نسيا هذا النهي كما جاء في سورة طه في قول الله تعالى:

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٣٣ من سورة البقرة.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾[1]

الحقيقة الثالثة:

إن آدم نزل على هذه الأرض، وقد تعلم كلمات الله وعهده، ليكوّن حياةً فاضلةً ويستمسك بها ولكن إبليس كان معه في الأرض يغويه وزوجه وذريتهما كما قال الله سبحانه.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2]

ثم كان خلق الإنسان بالتناسل، كما جاء في قول الله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[3]

وقال سبحانه في سورة الإنسان:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[4]

وقال سبحانه فيما ركبت عليه نفس الإنسان:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾[5]

---

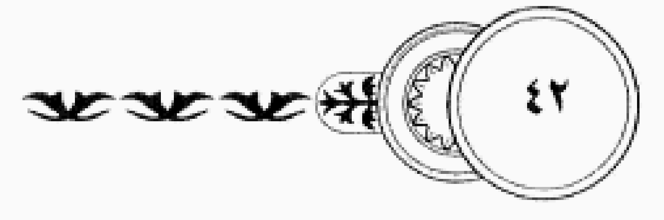
(١) الآية ١١٥ من سورة طه.

(٢) الآيتان ٨٢ و ٨٣ من سورة ص.

(٣) الآيات من ١٢:١٤ من سورة المؤمنون.

(٤) الآية ٢ من سورة الإنسان.

(٥) الآيتان ٧ و ٨ من سورة الشمس.



ثم يشير القرآن إلى القوى المدركة التي خلقها في الإنسان فيقول في سورة القيامة.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

وهكذا تتوالى آيات الله في الإنسان فتبين القوى الإنسانية فيقول الله في سورة النحل:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٢)

وتبين الآيات في سورة النحل كذلك أطوار خلق الإنسان، فيقول الله:

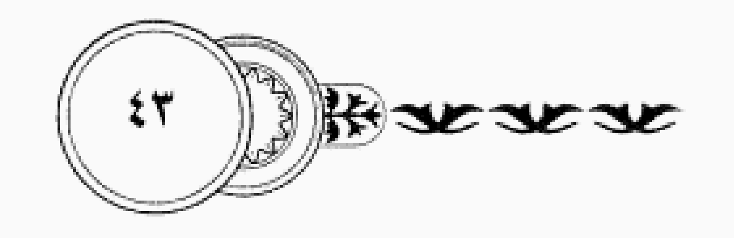
﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الآيات من ٣٦ : ٤٠ من سورة القيامة.

(٢) الآية ٧٨ من سورة النحل.

(٣) الآيات من ٧٠:٧٢ من سورة النحل.



وهكذا توالت آيات الله في القرآن توضح للإنسان خلقه وما كلف به، وأن الكون قد سخر له يستكشف أسراره كلما تقدم في العلم والتعلم والتجربة ثم إن الله وقد خلق الإنسان على ذلك التكوين النفسي والعقلي وكل القوى التي ركبها فيه أخذ عليه عهداً وميثاقاً بعبادته.

نجد هذا العهد مبرما في قول الله سبحانه في سورة الأعراف:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾[1]

ثم تتوالى آيات الله في القرآن وفي ذات السورة ـ الأعراف ـ لتقول للإنسان إن ما خلق الله فيك من المواهب هو عهد بينك وبين الله. فإن استجبت لما فطرك له. ارتفع شأنك وطابت حياتك. وإن خالفت واتبعت الشيطان، انخلعت من رضا الله ورضوانه ذلك قول الله.

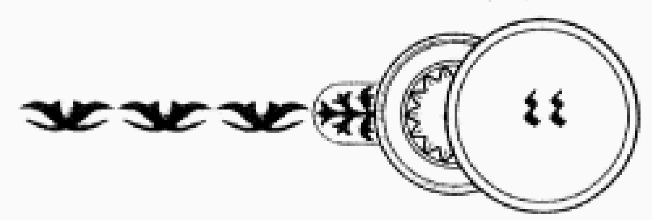
﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[2]

ولم يقف القرآن الكريم عند أطوار خلق الإنسان، وإنما صور للإنسان نفسه من خلال آياته التي سيقت في مواضع عديدة تكشف ماركب فيها مما يفيد

---

(١) الآيات من ١٧٢:١٧٤ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٧٥ من سورة الأعراف.



الدارسين في علم النفس لو شاءوا رشداً في دراساتهم، وطباً ربانيا لنفس الإنسان التي إذا صحت وبرئت من الأسقام صح جسده وصلح عمله واستقام له هذا الكون الذي سخره الله له وسلطه عليه.

ولو أن علماء التربية أقبلوا على دراسة القرآن بنظرتهم العلمية المتخصصة لوجدوا فيما ضرب من أمثال أبواباً للتربية العقلية التي تباعد بين النشء والأوهام، ففي آيات القرآن كشف عن النفس الإنسانية الراضية المطمئنة وكشف كذلك عن النفس الحاسدة الحاقدة.

نعم، إن على كل ذي تخصص علمي من المسلمين أن يتخذ آيات القرآن مرجعا يستلهم منه الكثير من الحقائق التي بثها الله في هذه الآيات، حتى يقف المجتمع المسلم على توجيهات القرآن في العلم والتعليم والتربية، وحماية المجتمع بدراسة نفسية أفراده أسرًا وجماعات.

هذا ما دعا إليه القرآن في قول الله تعالى:

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]

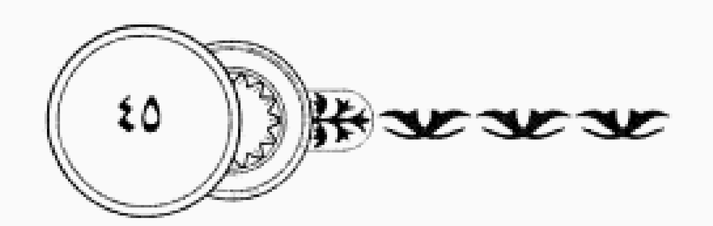
نماذج وتجارب ساقها القرآن ناطقة بالتوجيه الرشيد للسلوك في الحياة وبتنظيم قواعد الصلات بين بني الإنسان حتى تصلح بهم هذه الحياة وتعمر الأرض في رضا من الله ورضوان.

فهلموا أيها العلماء إلى مائدة القرآن موضحين ما حوت آياته من هدي وهداية وصدق الله إذ وصف كتابه.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[2]

(١) الآية ٢١ من سورة الذاريات.

(٢) الآية ٩ من سورة الإسراء.



خطوط الإنقاذ كما أرشد إليها القرآن الكريم

ففي سورة آل عمران قول الله سبحانه:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]

حوت هذه الآية الوسائل لإنقاذ الناس من الضلال الذي هو سبيل الهلاك، وقد أفادت هذه الآية أن الرسول المرسل من الله يأتي من بين قومه ناطقا بلغتهم كما جاء في قول الله سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم:

((وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ))[2]

وهذا يرشدنا إلى أن الأمراض الاجتماعية والنفسية تحتاج إلى خبراء من ذات البيئة، لأنهم هم الذين يعرفون العادات ويعرفون الإسلام، فهذا واحد من سبل الإنقاذ.

ومن هذه السبل تلاوة الكتاب، أي القرآن. ومؤدى هذا أن المنقذ من العلل الاجتماعية والنفسية والاقتصادية وكل علل المجتمع هو الدين؛ به تستقيم أمور الحياة، ويعرف كل من الفرد ومن الجماعة واجباتهم وحقوقهم. الدين الذي بينه القرآنُ، وسنة الرسول ﷺ ـ عقيدةً وعبادةً وخلقًا وسلوكًا وعملاً. ففي القرآن كل شيء إذا أحسن تلاوته وفهمه وتدبر آياته. ومن وسائل الإنقاذ التي جاءت بها هذه

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٤ من سورة إبراهيم.

الآية: تزكية الأخلاق وتطهير النفس، وتعليم الكتاب والحكمة التي هي ـ والله أعلم ـ سنة رسول الله ﷺ، وبهذا تكون آية سورة آل عمران التي تلوناها قد جمعت كل عناصر الإصلاح والاستقامة التي بها تحيا نفوس الشباب وتنضبط عواطفهم وترتقي مشاعرهم وخواطرهم ويحملون المسؤولية، مسؤولية هذه الحياة بعقل وروية.

في هذه العناصر التي جاءت بها هذه الآية الشفاء من أمراض القلق والشرود التي أصابت الشباب بل والكبار، بل فيها الدواء لكل الأمراض الاجتماعية والنفسية والتي تنعكس أمراضًا عضويةً يحاول الناس التداوي منها بالعقاقير بل وبالمخدرات. والمسكرات. التي شاعت وصارت وباءً وبلاءً ولا منجاة من كل هذا إلا بالتحريم الحازم لكل مسكر ومخدر، والأخذ على يد كل من ينشر هذه الموبقات.

وصدق الله سبحانه في وصف العلاج والوقاية في قوله تعالى في سورة المائدة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾[1]

ولا مراء في أن الوقاية خير من العلاج، وهذا مبدأ قرآني ساد بين الناس جميعا. ذلك قول الله سبحانه في سورة التحريم:

(١) الآيات من ٩٠:٩٢ من سورة المائدة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[1]

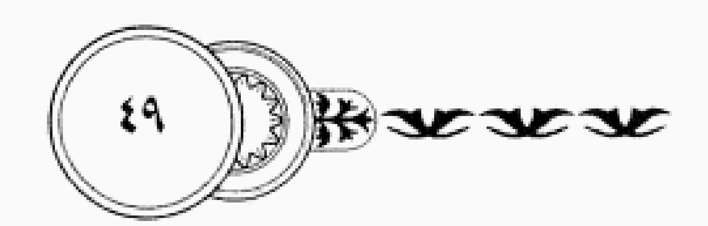
وفي هذا توجيه من الله سبحانه وتحميل للمسؤولية على كل قوَّام على تجمع إنساني في الأسرة، في المدرسة، في المصنع، في المتاجر، في المساجد، في الجامعات.

إن أقصر الطرق وأقومها إلى الاستقامة والسلامة: الوقاية، فالكلُّ يتحصن ضد الأمراض والأوبئة الجسدية، ونجد ونجتهد في الوصول إلى الأدوية للوقاية من هذه الأمراض. ومع هذا، نهمل عمداً وقاية أنفسنا وأهلينا وعلى الأخص أولادنا من أمراض أشد فتكًا وأفدح ضرراً على المجتمع، تلك الأمراض تتمثل في الفراغ الديني المخيف الذي تاه فيه الشباب ولم يصلوا إلى بر الأمان، ولن يصلوا حتى يرشدهم الراشدون من الآباء والمعلمين وحتى نأخذ بأيديهم، بل وعلى أيديهم لتستقيم نفوسهم رغبةً لا رهبة.

وكما نحصنهم من الأوبئة، نحصنهم من الخمر، فنحرمها عرضًا وبيعًا ـ وإنتاجا في كل مكان. ونحرم القمار والمخدرات ونطارد بحزم كل من يعرض هذه الموبقات المهلكات وكل من يتعاطاها. إن فعلنا ذلك ضمنا السلامة والاستقامة لكل أفراد هذه الأمة.

إن آية سورة التحريم هذه ترشدنا إلى أهمية التربية الدينية الصحيحة في الأسرة والمدرسة والجامعة والمصنع والحقل وتحث على العناية بالأولاد بدنيًا وعقليًا وثقافيًا وروحيًا وخلقيًا وسلوكًا. ولقد شرع الإسلام الأحكام التي تسلك بنا سبل الرشاد وتحض على تحمل المسؤولية؛ فهذه السنة الشريفة تلزم الوالدين بتعليم الأولاد الصلاة في سن السابعة، وتلك أول خطوة نحو الوقاية والتحصين

(١) الآية ٦ من سورة التحريم.



ضد المغريات والمفسدات في الحياة، حتى إذا ما اعتادوا الصلاة نشأوا أصحاء أقوياء جسداً وعقلاً وروحًا ظاهرهم النظافة وباطنهم الطهارة هذه وقاية إيجابية أرشد إليها القرآن وأوضحها رسول الله ﷺ في العديد من إرشاداته سواء في ذلك الفرد والأسرة والمجتمع.

وينبه القرآن الكريم إلى أن شأن القدوة خطير ولها أثر كبير في التربية.

ذلك قول الله سبحانه في سورة الطور:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

تلك هي القدوة ـ الحسنة. أما القدوة السيئة ففيها قول الله سبحانه في سورة الصافات:

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٢)

ومن هنا، كانت مساءلة الآباء أولاً: عن تربية الأولاد والمحافظة عليهم.

---

(١) الآية ٢١ من سورة الطور.

(٢) الآيتان ٦٩ و٧٠ من سورة الصافات.

العقيدة والشريعة في القرآن

إذا تلونا كتاب الله نجد أنه صاغ الإسلام من شعبتين: العقيدة والشريعة بحيث لا تكتمل حقيقة الإسلام إلا بهما.

والعقيدة هي الإيمان بكل ما وجب الإيمان به، جاءت مفصلة مقررة في آيات القرآن في دعوات الرسل المتعاقبين حتى خاتمهم محمد ﷺ.

ولقد عبر القرآن في آياته عن هاتين الشعبتين بالإيمان والعمل.

جاء ذلك في آيات كثيرة منها قول الله تعالى في سورة الكهف:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[1]

وقول الله سبحانه في سورة النحل:

﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2]

وفي سورة الأحقاف قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[3]

وقد دلت هذه الآيات وغيرها على أن العقيدة في الإسلام أصل فالإيمان أصل والشريعة تتبعه، ودائماً تزدهر الشريعة بقوة الإيمان ولا يحاربها إلا من كان في قلبه مرض.

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٩٧ من سورة النحل.

(٣) الآية ١٣ من سورة الأحقاف.

تلك العقيدة إيمان وإذعان بالله وملائكته ورسله وبأن الرسول محمداً ﷺ خاتم الرسل وأن دينه الإسلام آخر الأديان تقريراً وتكليفًا. كل الناس مدعوون للانضواء تحت لوائه، أما الشريعة فهي النظم والأحكام التي شرعها الله أو شرع أصولها وكلف بها المسلمين ليأخذوا أنفسهم بها في علاقتهم مع الله، وعلاقتهم مع الناس، وأن فروع الشريعة الإسلامية تنتمي إلى الصلة بالله أي العبادات، وإلى الصلة بالمخلوقات وذلك العمل أو المعاملات فيما بين الناس جميعا لحفظ مصالحهم ودفع مضارهم فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين الناس على الوجه الذي يمنع المظالم ويسود معه الأمن والطمأنينة، وهذه الناحية تشمل شؤون الفرد في الأسرة وفي المجتمع. ولقد قرر القرآن العقاب والثواب على العقيدة وعلى العمل، فقال الله سبحانه في سورة النور:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]

وفي سورة النحل يقول الله ـ عز وجل:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2]

---

(١) الآية ٥٥ من سورة النور.

(٢) الآية ٩٧ من سورة النحل.

فالثواب والعقاب يعدان جزاءً وفاقًا في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ومن أجل هذا كانت الحكمة من تشريع العقوبات صونا للمجتمع عن العبث بالأنفس والأموال والأعراض، أما هؤلاء الذين لم يؤمنوا وآثروا البعد عن الله بالرغم مما أنعم به عليهم، ومع عدم الإيمان أحسنوا عملا في الدنيا، فإن هذا العمل غير مقبول، يدل على ذلك قول الله في سورة الفرقان:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾(١)

فلنستكمل أيها المسلمون شعبتي الإسلام العقيدة والشريعة، ولنقرن الإيمان بالعمل، العمل في عبادة الله، والعمل المشروع لعمارة الدنيا، فإن من فضل الله على المسلمين أن رتب لهم الثواب على كل عمل مباح فيه نفع للعامل أو لغيره.

نعم إن العمل الصالح ليس مقصوراً على العبادات، لأن كل عمل المسلم وسعيه في الدنيا - متى تحرى الحلال فاكتسبه وابتعد عن الحرام - كان مشكوراً مأجوراً عند الله.

ولنسمع قول الله سبحانه في سورة الجمعة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٢)

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الفرقان.

(٢) الآية ٩ من سورة الجمعة.





فضل القرآن وأسماؤه

القرآن يحدثنا عن فضائل القرآن: من ذلك قول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾[1]

أي أن تلاوة كتاب الله القرآن كسب مضمون وربح مؤكد، لأن التجارة مع الله رابحة وبضاعتها لن تبور، إنها تجارة مع طاعة الله، بالصلاة وبالإنفاق سرا وعلانية، فلنقدم على هذه التجارة ولنحسن إدارتها.

ولما كان للقرآن فضله وقدره، علمنا الله في كتابه آدابا نلتزمها عند تلاوته أو الاستماع لتلاوته فقال سبحانه:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2]

ودعا إلى تدبره وفهم آياته فقال:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[3]

وهذا رسول الله ﷺ يصف القرآن فيقول:

"إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم"[4]

---

(١) الآية ٢٩ من سورة فاطر.

(٢) الآية ٢٠٤ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٢٤ من سورة محمد.

(٤) رواه الطبراني.

ويقول: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1]

هذا، ولا يتحرج أحد من تعلم تلاوة القرآن بدعوى التحرز من الخطأ في النطق، فهذا رسول الله ﷺ يصف نوعين من قراء القرآن فيقول:

"الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة. والذي يقرأ القرآن يتعتع فيه (أي تصعب قراءته عليه) وهو عليه شاق له أجران"[2]

فعلينا أن نتواصى بتلاوة القرآن وبالعمل به ذلك أن من لم يقرأ القرآن فقد هجره، ومن قرأ القرآن ولم يتدبر معانيه فقد هجره، ومن قرأه وتدبر ولم يعمل بما فيه فقد هجره.

ذلك ما يشير إليه قول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ ﴾[3]

نعم: إنه لا عذر للمسلمين في هجر القرآن، وعليهم أن يتعلموه ويعلموه أولادهم وأن يداوموا تلاوته ودراسته.

أسماء القرآن:

للقرآن أسماء عديدة جاءت بها آياته

فهو القرآن، جاء هذا في آيات متعددة منها قول الله سبحانه:

﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾[4]

---

(١) رواه البخاري والترمذي وأحمد وأبو داود وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه.

(٣) الآية ٣٠ من سورة الفرقان.

(٤) الآية ١ من سورة ق.

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[1]

وهو الفرقان، لقوله تعالى:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾[2]

وهو التنزيل وذلك قول الله:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾[3]

وهو الذكر، لقوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[4]

وهو الكتاب: ذلك قول الله:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾[5]

أما أوصافه:

فقد جاءت آيات كثيرة تصف هذا القرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ.

من هذه الآيات قول الله تعالى:

---

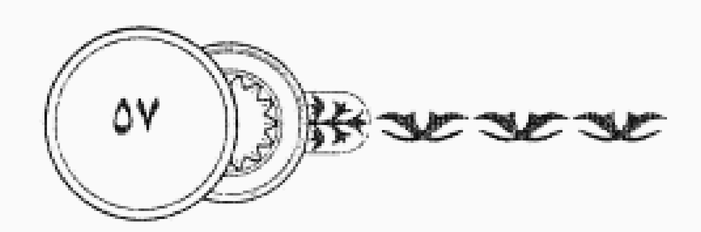
(١) الآية ٩ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ١ من سورة الفرقان.

(٣) الآيتان ١٩٢و ١٩٣ من سورة الشعراء.

(٤) الآية ٩ من سورة الحجر.

(٥) الآيات من ١:٣ من سورة الدخان.



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾[1]

وهو شفاء ورحمة للمؤمنين، لقول الله:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[2]

وقول الله:

((قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ))[3]

وقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[4]

---

(١) الآية ١٧٤ من سورة النساء.

(٢) الآية ٨٢ من سورة الإسراء.

(٣) من الآية ٤٤ من سورة فصلت.

(٤) الآية ٥٧ من سورة يونس.

القرآن معجزة نبي الإسلام

جرت حكمة الله أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، وبالبراهين الدامغة التي تدل على صدقهم، وفي هذا روي عن رسول الله محمد ﷺ قوله:

"ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا"[١]

ذلك أن معجزة القرآن في ذاته وبما حوى من المعجزات الكثيرة قال تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[٢]

هذه المعجزة قد كتب الله لها الخلود، فلم تذهب أو تذبل بمضي الأيام، ولم تمت بموت رسول الله ﷺ، بل ما تزال قائمة تحاج كل مكذب وتتحدى كل منكر، وتدعو الناس جميعاً إلى ما في القرآن من هداية الإسلام وسعادة الإنسانية.

ومن هذا يظهر الفرق واضحا بين معجزات نبي الإسلام محمد ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم السلام.

إذ إن معجزة القرآن تحوي آلاف المعجزات الباقية إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تهدي الناس:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[٣]

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٣) الآيتان ٩ و١٠ من سورة الإسراء.

تلك معجزة نبي الإسلام، أما المعجزات لسائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ماتت بموتهم، وانتهت بذهاب أزمنتهم.

كانت معجزاتهم حسية، كعصا موسى التي انقلبت حية تسعى، وناقة صالح التي خرجت من الصخر ولها رغاء، أو شفاء مريض، أو إبراء أعمى، كما كانت معجزة عيسى عليه السلام.

أما القرآن فهو المعجزة الكبرى للرسول محمد ﷺ، خالدا إلى ما شاء الله قال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾(١)

ولقد تحدث عن هذه المعجزة كل الخلائق فما واجهها مخلوق أيا كان وضعه أو وصفه قال الله تعالى في سورة الإسراء:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾(٢)

ثم تحدى القرآن العرب أصحاب هذه اللغة التي نزل بها وفرسان البلاغة، والبيان، تحداهم بأن يأتوا بمثله قال تعالى:

﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾(٣)

وقال:

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾(٤)

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء.

(٣) الآية ٣٤ من سورة الطور.

(٤) الآية ٤٩ من سورة القصص.

ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور فقال في سورة هود:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]

ثم تحداهم بسورة من مثله فقال في سورة البقرة:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]

هذا التحدي لأهل البلاغة والفصاحة أهل هذه اللغة التي هي لسانهم، فما استطاعوا بالرغم من اتساع الوقت، إذ لم يضرب لهم أجلاً للمعارضة ولم يحدد زمنا للمناقضة، أن يأتوا بمثله. والحديث عن القرآن المعجزة الخالدة قد فصله العلماء، كل في الجانب الذي يحسنه فما استوفوا ما فيه وما بلغوا غايته.

نقل أن الأصمعي خرج ذات يوم فسمع جارية تنشد أبياتًا من الشعر وأعجبته فقال لها: قاتلك الله، ما أفصحك . فقالت له: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾[3]

---

(١) الآيتان ١٣ و١٤ من سورة هود.

(٢) الآيتان ٢٣ و٢٤ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٧ من سورة القصص.



ثم قالت له: لقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

أما الأمران فهما: أرضعيه وألقيه في اليم، وأما النهيان فهما: ولا تخافي ولا تحزني، وأما الخبران فهما: أوحينا وخفت، وأما البشارتان فهما: إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين.

سبحان الله الذي فهم هذه الجارية البدوية صغيرة السن هذا العلم.

وروي أن ابن المقفع الكاتب البليغ المشهور حاول معارضة القرآن ذات مرة فسمع صبيا يقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]

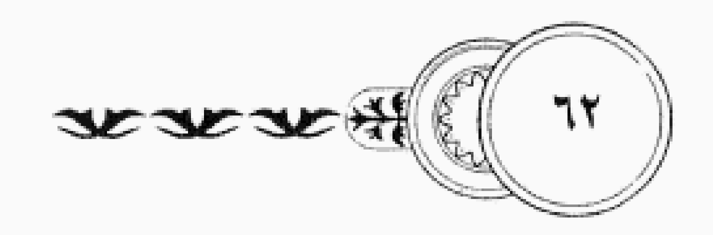
فمزق صحفه التي كان قد بدأ بها معارضة القرآن وكسر أقلامه، وقال: والله هذا مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله.

هذا هو القرآن.. كتاب الله إلى الناس جميعاً، المعجزة الخالدة. على المسلمين أن يعملوا به، وأن يحفظوه ويعلموه أولادهم، فبه وفيه الحياة السعيدة المطمئنة، وفيه الشريعة العادلة المستمرة، وفيه العقيدة الصافية، وفيه وبه السكينة والطمأنينة، وليس بعد قوله تعالى في وصفه قول قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[2]

(١) الآية ٤٤ من سورة هود.

(٢) الآية ٩ من سورة الإسراء.



تنظيم القرآن للمجتمع

لقد تكفل القرآن ـ وهو تنزيل من حكيم حميد ـ في مبادئه ونظمه وعباداته بالتنظيم العام للمجتمع الإنساني.

حيث نرى في هذا الكتاب وتصريف آياته خطاب الإنسان مستثيراً إنسانيته وكوامن نفسه، وخبايا ضميره، ودوافع قلبه، مذكراً بتكوينه:

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]

حتى يدرك الإنسان خلقه وتطوره وتركيبه، وإبداع هذا التركيب، وحتى يدرك المجتمع أنهم أناسي، وأنهم جميعا لآدم، من تراب، وأنهم سواسية في الحقوق والواجبات، وما يترتب على ذلك من مسؤوليات. ومن ثم نرى القرآن يخاطب الناس في مكة في صدر الرسالة بما يفهمون مناقشاً ما يتصورون وما يعبدون، وصولاً إلى إقناعهم بفساد عقيدتهم، وعملا على تغيير ما جبلوا عليه من قسوة وما اعتادوا عليه من فساد، حتى إذا ما انتقلت الرسالة إلى المدينة وإلى مجتمع قد انطوت قلوبهم على عقيدة التوحيد وافتهم آيات القرآن بالمبادىء والقواعد والأفكار يعلنونها، ويناقشون فيها موقفهم من أهل الكتاب في تدبر وروية ويدعونهم إلى كلمة سواء:

ها هو القرآن يبدأ بخطاب الفرد خطاب عليم خبير بنفس الإنسان وما جبلت عليه، فيقول الله في سورة الانفطار:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾[2]

---

(١) الآية ٢١ من سورة الذاريات.

(٢) الآيات من ٦:٨ من سورة الانفطار.

وفي سورة يونس:

((وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ))[1]

وفي سورة المعارج:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[2]

آيات واضحات في تكييف نفس الإنسان واستظهار مخبوئها حتى يكون الفرد على بينة مما انطوت عليه جوانحه.

ثم يصف القرآن نفس الجماعة الإنسانية، وما تحمله وتحويه من أسرار وسبحان الله العليم الخبير فيقول في سورة يونس:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3]

---

(١) من الآية ١٢ من سورة يونس.

(٢) الآيات من ١٩:٢٢ من سورة المعارج.

(٣) الآيتان ٢٢ و٢٣ من سورة يونس.

أرأيت أن كلا من الفرد ومن الجماعة - حسبما جاء في تلك الآيات - كان إذا وقع في ضائقة يسأل النجاة (من هذه)، حتى إذا استجاب الله له ووصل برحمته إلى بر النجاة رجع (إلى هذه) أي إلى ما كان عليه، وما كان فيه من البغي وإنكار نعم الله وعبادة غيره.

والقرآن بهذا الأسلوب في الخطاب للفرد وللجماعة الإنسانية بوصفها الإنساني العام يدعو إلى الأخلاق التي يجب أن تسود حياة الناس. نجد ذلك واضحًا في قوله تعالى في سورة يونس:

((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ))(١)

وفي سورة الحج:

((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ))(٢)

وفي سورة لقمان:

((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا))(٣)

حتى إذا ما أقر بين الناس جميعًا مبادئ الأخلاق العامة من المساواة، والعدالة، والدعوة إلى الإيمان، والعقيدة الصحيحة خاطب الناس منبهًا إلى أصلهم

---

(١) من الآية ٥٧ من سورة يونس.

(٢) من الآية ٥ من سورة الحج.

(٣) من الآية ٣٣ من سورة لقمان.

ليتعارفوا ويتفاهموا حتى يقيموا التساوي بينهم في الحقوق والواجبات، كما وقع التساوي بينهم في المنشأ الخلقي والإنساني، خاطبهم بما جاء في سورة الحجرات:

((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ))[1]

وحتى إذا ما أقرت هذه المبادىء بين الجماعة الإنسانية واستقرت خاطب من آمن بها وأسلم وجهه إلى الله وهو محسن بما يخصه من آداب وأخلاق، وبحق ما وقر في قلوبهم من إيمان، وما انطوت عليه جوانحهم من حرمة اليقين، فيقول الله في سورة الحجرات:

((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ))[2]

وفي سورة الحديد:

((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ))[3]

وفي سورة الحجرات:

((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟))[4]

وفيها أيضاً

((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ))[5]

---

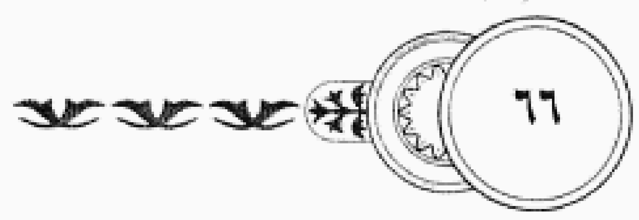
(١) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٢) من الآية ١٢ من سورة الحجرات.

(٣) من الآية ٢٨ من سورة الحديد.

(٤) من الآية ٦ من سورة الحجرات.

(٥) من الآية ١١ من سورة الحجرات.



ألوان متنوعة من التوجيهات المنظمة للمجتمع الإنساني عامة ولمجتمع المؤمنين خاصة، حتى إذا لم تنفع الإنسانية التي استثيرت، ولا الإيمان الذي خوطبوا به، جاءت الآيات بالنذر والإنذار، فيقول الله في سورة التحريم:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧ ﴾[1]

وفي سورة الرعد:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ۝٤٣ ﴾[2]

وبهذا كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة ورسالته عامة مستمرة، دعوة عقيدة وإيمان بوصف العقيدة الثابتة هي الأساس للمجتمع. حتى إذا ما وجهت الرسالة دعوتها إلى علاج أدواء الحياة التي وقعت بسبب التفاوت في الغنى والفقر، لم يكن علاجها بنظريات ظالمة تناصر طائفة على أخرى أو تسلب حقوق فريق لتمنحه إلى آخر. ولكن واجه القرآن ذلك بإثارة العاطفة وبالحسنى وبدعوة الغني إلى شكر الله على إغنائه، وأن يكون هذا الشكر برعاية الفقراء والمحتاجين، والمساكين واليتامى وأبناء السبيل، وإغاثة الناس يوم الشدة، فيقول الله موجهًا في سورة البلد:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ﴾[3]

(١) الآية ٧ من سورة التحريم.

(٢) الآية ٤٣ من سورة الرعد.

(٣) الآيات من ١١:١٦ من سورة البلد.

وهكذا كان توجيه الغني أن يضفي على الفقير ويفيض عليه من مال الله الذي استخلفه فيه، كل هذا ليرضى الناس بعضهم عن بعض مخافة الأثرة التي قد تستبد بصاحبها بل إن القرآن جعل للسائل والمحروم حقًا معلومًا يشبه أن يكون دينًا، ومن ثم فلم يقسم القرآن المجتمع الإنساني عامة والإسلامي خاصة إلى طبقات وإنما جعل المجتمع وحدة إنسانية تتعاون على البر والتقوى، ثم بعد هذا الإرشاد هدد الأغنياء الذين يمسكون عن العطاء والإنفاق فقال في سورة محمد:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[1]

هذا والقرآن الكريم فيما يختص بالتشريع والأخلاق والاجتماع احتوى فقط على أصول وقوانين كلية، تاركًا الجزئيات لاجتهاد أهله يستنبطونها على حسب الزمان والمكان من كتاب الله وسنة رسوله.

مثال ذلك فيما يختص بالشريعة مبدأ العدل المطلق والمساواة.

قال تعالى في سورة النساء:

((۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ))[2]

وعن مبدأ المساواة قال:

---

(١) الآية ٣٨ من سورة محمد.

(٢) من الآية ٥٨ من سورة النساء.

((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ))[1]

وعلى المسلمين أن يستنبطوا لأنفسهم القوانين العادلة، مستمدة من الأصول المبينة في القرآن والسنة، مراعين أحوال الزمان والمكان والمصالح.

ولقد قام المسلمون الأولون بذلك في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام ولم يتوقفوا عن الاجتهاد لاستنباط أحكام ما استجد من واقعات إلا حين طرأ الضعف على الأمة، وما يزال الاجتهاد مفتوحًا وسيظل إن شاء الله لمن توفرت لديهم شروطه من العلماء الذين وصفهم الله سبحانه في قوله تعالى:

((وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ))[2]

ومن أصول الإسلام التسامح، حيث أقامه القرآن على مبادئ ثابتة، فقرر أن حكمة الله قضت بأن الناس مختلفون في العقائد كل على حسب عقله ونظره ذلك قول الله في سورة هود:

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ ﴾[3]

ذلك أنه لا يستطيع أحدٌ أن يهدي أحدًا إلى مذهب أو دين إلا بإذن الله ذلك قول الله لرسوله محمد ﷺ في سورة القصص:

((إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ))[4]

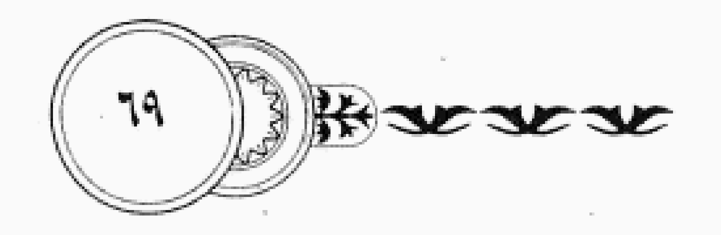
---

(١) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٢) من الآية ٨٣ من سورة النساء.

(٣) الآية ١١٨ من سورة هود.

(٤) من الآية ٥٦ من سورة القصص.



وقال في سورة يونس:

((وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ))[1]

وهكذا علم القرآن المسلمين أن اختلاف الأمم في الأديان شيء واقع بإرادة الله وحكمته وأنه تابع لدرجة نضج العقول والمدارك، وأن إنسانا لا يستطيع هداية إنسانٍ إلا بإذن الله، وأن ليس لأحدٍ سيطرةٌ على قلب أحد، وليس لأحدٍ أن يُكْره أحدًا على الإيمان.

نرى هذا واضحًا في قول الله سبحانه في سورة الغاشية:

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[2]

وقوله في سورة الأنعام:

((قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ))[3]

وبهذا البيان من الله يرفَع الحقد من قلوب المسلمين بسبب اختلاف الدين مع غيرهم، وتحل الرحمة والألفة وحسن التعامل مع أهل الأديان الأخرى.

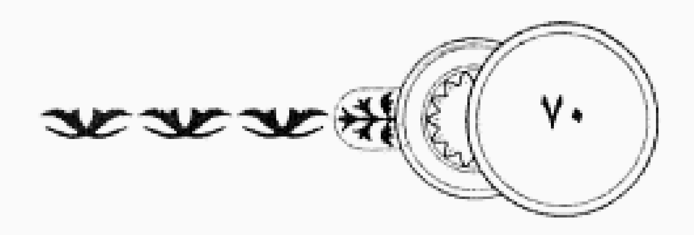
ذلك قول الله في سورة الممتحنة:

---

(١) الآيتان ٩٩ و١٠٠ من سورة يونس.

(٢) الآية ٢٢ من سورة الغاشية.

(٣) من الآية ٦٦ من سورة الأنعام.



﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1]

وحتى مع وقوع الحيف من غير المسلمين، يأمر الله المسلمين بالتزام قواعد العدل في التعامل مع أولئك وذلك قول الله في سورة المائدة:

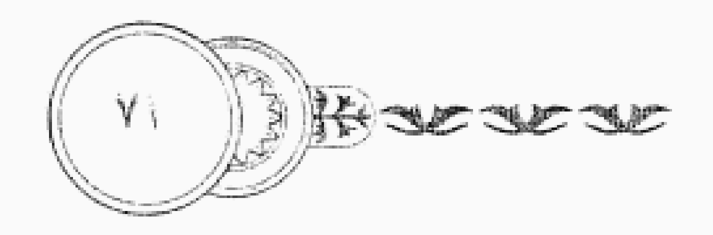
((وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ))[2]

مثل في التربية والتعليم.. وفي تنظيم المجتمع.. ينبغي أن نعيها ونعمل بها.

---

(١) الآيتان ٨ و٩ من سورة المتحنة.

(٢) من الآية ٨ من سورة المائدة.



سماحة الإسلام كما عبر عنها القرآن

من معاني (سمح سماحة) جاد وأعطى، والتسامح: الاتساع، ومنه يقال: في الحق مسمح؛ أي متسع ومندوحة عن الباطل.

وبهذا الاعتبار تواردت آيات كثيرة في القرآن تعبر عن وجوه من سماحة الإسلام.

من ذلك أن القرآن لم يقف من الأديان السماوية السابقة موقف تحدٍ وجحود، وما كان له أن يقف مثل هذا الموقف لأنه جاء استكمالاً لرسالة وشرائع الرسل السابقين وجميعها مع الإسلام من مشكاة واحدة تفيض بالنور والهدى لأنها رسالات الله إلى الناس. وجاء الإسلام خاتمًا مستكملاً ما تحتاجه البشرية تبعًا لتطورها في العلوم والمعارف والسلوك والأخلاق؛ ومن ثم كان تقرير الله في القرآن الإيمان أصلاً من أصول الإسلام على الوجه الذي جاء في الآية التالية من سورة البقرة:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾[1]

فالإسلام الذي يقرر كتابه هذا المبدأ لا يُكْرِه الناسَ على أن يدخلوا في حوزته، بل يقرر القرآن في سورة البقرة أنه:

---

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١)

ويرسم في سورة النحل أسمى وسائل الدعوة إلى الله بقوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٢)

فإذا كانت الدعوة متعلقة بأهل الكتاب، وَجَّهَ القرآن المؤمنين إلى مزيدٍ من الرفق وإظهار المودة وحسن المجادلة والحوار. نجد هذا في قول الله سبحانه في سورة العنكبوت:

((وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ)) (٣)

وإذا نظرنا إلى شريعة الإسلام نجد أنها قد اشتملت على أحكام توثق علاقات الناس في المعاملات ونظام الأسرة والمواريث والوصايا.

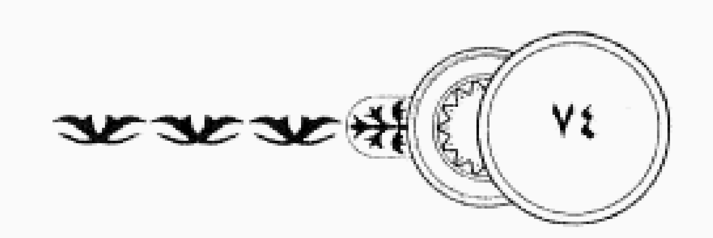
ولقد توخت هذه الشريعة العدل في توزيع التركة، وحالت بما صنعت دون تجمع الثروة في أيدٍ قليلة مثلما تقرره بعض القوانين التي تخص الابن الأكبر وحده بجميع التركة وتحرم الآخرين من الأبناء والبنات. ونظم الإسلام الوصايا

---

(١) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

(٣) من الآية ٤٦ من سورة العنكبوت.



بما يكفل لصاحب الأموال أن يوصي من ماله بما لا يزيد على ثلث كل تركته. وأقام الإسلام نظام التوريث على معايير القرابة والمصاهرة.

وليقرأ من يشاء آيات المواريث في سورة النساء ليجد فيها حكم الإسلام الذي يمثل العدل المطلق فيما شرع.

ثم ها هو القرآن يورد مثلاً للمروءة التي هي من صنوف السماحة فيقص علينا موقف موسى عليه السلام حين ورد ماء مدين، كما جاء في سورة القصص، فيقول الله سبحانه:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾(1)

هذه المروءة التي تمثلت في تقديم موسى عليه السلام معونته إلى هاتين المرأتين اللتين قد وقفتا بعيدا عن مورد الماء حتى ينتهي التزاحم عليه، فسقى لهما.

هذا الصنيع جاء به القرآن ليكون نموذجًا لتقديم العون إلى كل محتاج من كل قادر. وها هي سماحة الإسلام تمتد بالإحسان إلى اليتيم وإلى الوالدين والأقربين والمساكين وابن السبيل نرى هذا صريحاً واضحاً في الآيات التالية:

---

(١) الآيات من ٢٣:٢٥ من سورة القصص.

في قوله سبحانه في سورة البقرة:

((يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ))(١)

وفي سورة الإنسان:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾(٢)

وفي سورة البلد:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾(٣)

وفي سورة الفجر:

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾(٤)

وغير هذا من الآيات البينات التي تفيض سماحة ومودة ومروءة وإحسانًا ومساندة للمجتمع الإسلامي المتكافل المتعاون على البر والتقوى.

وهو يعرض على المجتمع الإنساني المعاصر صنوفا من سخاء وكرم السابقين من المرسلين، فيتحدث عن قرى الضيف، ويمتدح ذلك بطريق الإشارة، ففي سورة الذاريات:

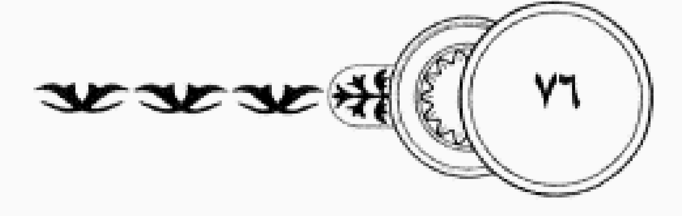
---

(١) من الآية ٢١٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨ من سورة الإنسان.

(٣) الآيات من ١١:١٦ من سورة البلد.

(٤) الآيتان ١٧ و١٨ من سورة الفجر.



﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾(١)

وهذا من الله نداء إلى الناس بوجوب إكرام الضيف الطارق وإن كان غير معروف.

ومن هنا كان حث الإسلام أيضًا على الإحسان إلى ابن السبيل أي المسافر وإكرامه، ومن سماحة الإسلام مرونة قواعده، إذ إنه باعتباره الدين الخاتم فَصَّل بعض الأحكام التشريعية وأجمل الأخرى في قواعد تتسع لاحتواء كل الواقعات التي تَجِدُّ وتحدث في كل زمان ومكان.. حتى لا يقع الناس في الحرج ولا تضيق عليهم المسالك.

وقد كان القرآن واضحًا في تقرير ذلك، ففي سورة المائدة قول الله سبحانه:

((مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ))(٢)

وفي سورة الحج:

((هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ))(٣)

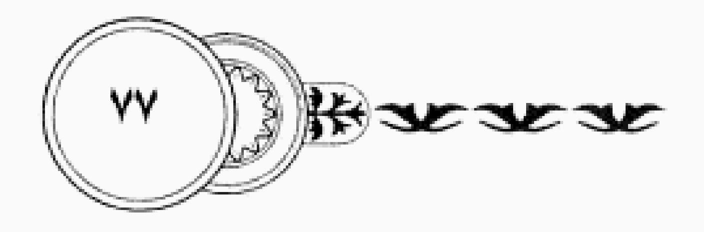
إن علينا نحن المسلمين أن نسعد بهذه السماحة في عقيدة الإسلام وشريعته وأن نفيض بها على أنفسنا وعلى الناس، فلا نغلوا في الدين ولا نضيق ما وسعه الله، فإن الله يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر.

---

(١) الآيات من ٢٤:٢٧ من سورة الذاريات.

(٢) من الآية ٦ من سورة المائدة.

(٣) من الآية ٧٨ من سورة الحج.



مفاهيم حول القرآن

التفريط ـ الغلو

في سورة طه قول الله سبحانه في شأن موسى وهارون عليهما السلام:

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾[1]

وفي سورة الزمر:

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]

وفي سورة النساء:

((يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ))[3]

وفي سورة المائدة:

((قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ))[4]

---

(١) الآية ٤٥ من سورة طه.

(٢) الآية ٥٦ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ١٧١ من سورة النساء.

(٤) من الآية ٧٧ من سورة المائدة.

وفي سورة الأعراف:

((وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ))(١)

في اللغة: يقال: فرط في الأمر تفريطًا: أي قصر فيه وضيعه، وأفرط إفراطًا أي أسرف وجاوز الحد.

كما يقال: غلا بسهمه غلوًا أي رمى به أقصى الغاية، وغلا في الدين غلوًا أفرط وشدد حتى جاوز الحد..

ويقال كذلك: أسرف إسرافا إذا جاوز القصد.. الإسراف في الأكل والشرب بمعنى تجاوز حد الاعتدال، يجلب الداء وقد يقتل..

والوسط النافع هو الاعتدال من غير إسراف في الزيادة ولا في النقصان.

والاعتدال في الطعام والشراب له مراتب: عليا ووسطى ودنيا: فالعليا: أرشد إليها رسول الله ﷺ في قوله ضمن الحديث الذي رواه الترمذي عن المقداد بن معدي كرب:

".. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه"

والوسطى: مازاد عن اللقيمات اللواتي يقمن الصلب..

والدنيا: هي التي بينها رسول ﷺ بقوله:

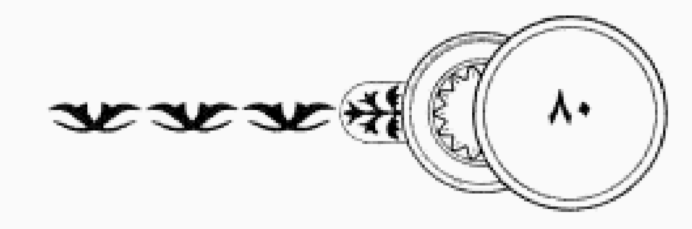
"فإن كان ولا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه"

والإسراف في الكد والعمل دون الراحة إفراط يؤدي إلى المرض والهلاك.

والإسراف في الراحة والكسل وترك العمل تفريط في حقوق الجسم والنفس ضار بالصحة وقد يهلك صاحبه.

---

(١) من الآية ٣١ من سورة الأعراف.



والوسط النافع هو الاعتدال من غير إسراف في بذل الجهد ولا إسراف في الإخلاد إلى الراحة وترك العمل.

والاعتدال مراتب:

أدناها أداء العمل الواجب. وأوسطها أداء العمل المبرور الزائد على الواجب. وأعلاها تجويد العمل وإحسانه وهو العمل الكامل الذي يخلو من اللهو ومن اللعب، مع أخذ القسط المناسب من الراحة ومن الترويح عن النفس..

ففي الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

"إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة"

قال الإمام النووي تعليقًا على هذا الحديث: "ومعناه - استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم، وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون وتبلغون مقصودكم".

كما أن المسافر الحاذق يسير في أول النهار وفي آخره وفي جزء من آخر الليل.

ويستريح هو ودابته في غيرها فيصل إلى المقصود بغير تعب والله أعلم.

وفي الأثر: روحوا القلوب ساعة فساعة، فإن القلوب إذا تعبت كلت، وإذا كلت ملت.

والإسراف في الحب غلو ضار قد يؤدي إلى هلاك صاحبه، كما أن الإسراف في ضبط العاطفة تفريط قد يوقع صاحبه في جفاف العاطفة التي تؤدي إلى الأنانية، فالكراهية والبغض الضار.

والوسط النافع هو الاعتدال من غير إسراف في الحب ولا إسراف في ضبط العاطفة كما قال رسول ﷺ فيما رواه الترمذي والبيهقي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه "أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وابغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما".

والاعتدال في الحب مراتب: أدناها مرتبة الحب الواجب، وأوسطها مرتبة الحب المبرور، وأعلاها كمال الحب في الله.

وما هو دون المرتبة الدنيا تفريط، وما هو بعد المرتبة العليا منحدر إلى الغلو الممقوت.

التفريط في الدين

يقع التفريط في الدين بالتخلي عن أوامر الله ونواهيه، وباستباحة المحرمات، وبالنقص من حقوق الوالدين وذوي القربى والجيران أو بمجافاة تلك الحقوق وإهمالها، ويكون هذا بسبب ضعف الانتماء إلى الدين والولاء له، أو انعدامهما بسبب تناقص الإيمان.

والتفريط في الدين إذا لم يصل إلى مستوى الجحود كان من باب اتباع الهوى، وإيثار الشهوات، وقد يؤدي إلى مستوى الرغبة في الفجور والانطلاق في المعاصي والآثام.

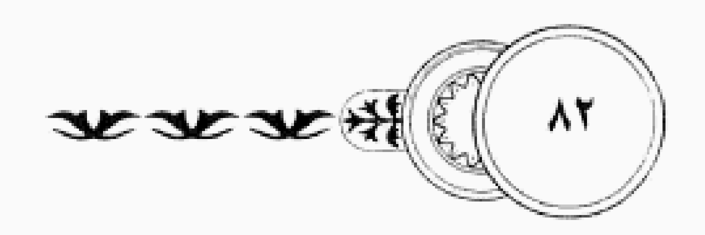
الغلو في الدين:

قد يقع الغلو في الدين بتجاوز حدود الله فيه، توسعاً فيما أمر الله به، أو نهى عنه، وتزيداً عما قدره الشرع.

ويكون الغلو في الدين بسبب المبالغة في الاندفاع بقوة دون بصيرة طلباً لنوال أعلى الدرجات في الدين، واحتلال أرفع المنازل، وغالباً ما يرافق هذا الاندفاع حركة متسرعة، واضطراب في الرؤية والفكر وفساد في تصور الحقيقة.

وقد يكون الغلو في الدين بسبب سوء فهم حقيقة الدين، إما من اجتهادات ذات المغالي، أو من اجتهادات معلمه وقائده الذي تلقى أو يتلقى عنه.

ومن هذه المغالاة: إدخال الرأي الشخصي في قضايا الدين وأحكامه وشرائعه، دون أن يتأهل لذلك بالعلوم والأدوات المناسبة وقد يكون الغلو في الدين



بسبب الرغبة في احتلال مركز الاحترام والتقدير عند العامة الذين قد يرون في الغلو في الدين ارتقاءً في المراتب.. ولا يفهمون أن كمال التدين بالتزام حدود الله دون تفريط أو غلو.

وبعد الرغبة في احتلال مركز الاحترام والتقدير، تأتي رغبات أخرى منها منافع دنيوية مالية وغيرها، وبعض الغلو في الدين يكون بمثابة ستار لإخفاء ارتكاب معاصٍ من كبائر الآثام.

وبعض الغلاة في الدين غير مخلصين في التدين، بل ويعملون على إفساد مفاهيم الدين، والانحراف عنها.

ومن ثم كان الغلو في الدين خروجًا عن حدود الله ودائمًا يصحب الغلو في الدين تعصب وهوى جامح من تلبيس إبليس.

وكل من التفريط والغلو في الدين يقع في العقائد وفي الأحكام الشرعية وفي السلوك الديني وفي الولاء للدين.

التفريط والغلو في العقائد

العقيدة الإسلامية ذات حدود بمعنى أن لها بدايات ونهايات وعناصر محددة.

ويقع التفريط في العقائد أو في المفاهيم الأساسية بالتهاون، والتسامح في عدم الأخذ بها، إما بتوسيع حدودها، أو بتغيير صفاتها، أو شروطها أو أركانها.

وهذا التهاون من شأنه أن يفسد العقائد الصحيحة والمفاهيم القويمة.

ومن ثم فلا يجوز التهاون في عقيدة ثابتة شرعًا، أو عقلاً بصيغة قطعية كالإيمان بالله تعالى وبصفاته. وكمالاته وأسمائه الحسنى، والإيمان بالملائكة والجن وبسائر الأخبار القطعية من أنباء الغيب الحاضر أو الماضي، أو الآتي وكذلك كل ما جاءت به الأدلة القطعية في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ كالإيمان بكل ما تواتر عن رسول الله ﷺ، وثبت بصفة قطعية. وفي مقدمة هذا القرآن الكريم الشامل لكل آية منه وجزء آية، والشامل لكل قراءاته المتواترة.

وبوجه عام لا يجوز التفريط في أية عقيدة يحكم شرعًا على منكرها بالكفر والفسق.. ولا يجوز كذلك التفريط في المفاهيم الدينية المنبثة في كتاب الله أو السنة الثابتة، كمفاهيم سنن الله في الكون، أو في التكاليف، أو الجزاء مثوبة وعقوبة، وكالمفاهيم المتصلة بالعقائد الأخلاقية والتشريعية.

ولا يغيب عن البال أن التهاون في الواجبات والتفريط فيها يؤدي إلى نسيانها، والإعراض عن ذكر الله. وهذا ما جاء في شأنه قول الله سبحانه في سورة طه:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾(١)

فالإنسان الذي تحدثت هذه الآيات عنه كان مؤمنًا فأعرض عن ذكر الله فنسي ربه فعاقبه بالضنك في المعيشة في الدنيا، وهو ضيق وعذاب نفسي ويحشر يوم القيامة أعمى كالكافرين.

ومن ثم فالنسيان الناشئ عن الإهمال والتهاون والتقصير نسيان يؤاخذ الله عليه، وهو أمر يقتضيه العدل والحق.

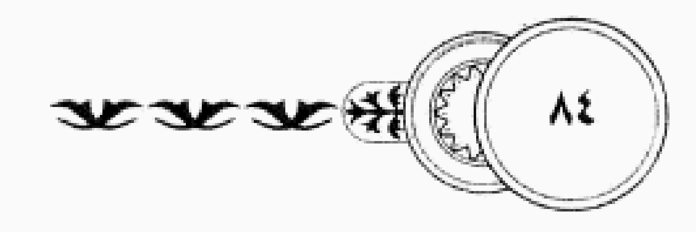
الغلو في العقائد والمفاهيم

ويقع هذا بمجاوزة حد الحق فيها بدافع المبالغة الزائدة عما ينبغي، وهذا التجاوز لا يكون إلا خروجًا إلى الباطل.

ومن الغلو اللجوء إلى الدفاع عن العقائد والمفاهيم الدينية وشرحها بالحجج - الحجج الباطلة والأكاذيب، ذلك لأن الحق لا يُنصر بالباطل وإنما الهداية إلى الحق يجب أن تكون بالحق وليس بالباطل.

---

(١) الآيات من ١٢٤:١٢٦ من سورة طه.



وإلى هذا يشير قول الله سبحانه في سورة الأعراف ثناء على الدعاة إلى الله:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾[1]

أي أنهم يهدون إلى دين الله وصراط الله بالحق لا بالباطل فلا يتخذون الباطل وسيلةً يهدون بها إلى دين الله وصراطه.

وهم أيضًا يعدلون في أحكامهم مع الناس بالاستناد إلى قواعد قويمة فهم بالحق يعدلون.

وقد يكون الغلو في العقائد والمفاهيم الدينية مبعثه وسوسة الشياطين من الجن والإنس فيدفع هؤلاء الغلاة في باطلهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وهؤلاء وصفهم الله في سورة الكهف بقوله تعالى:

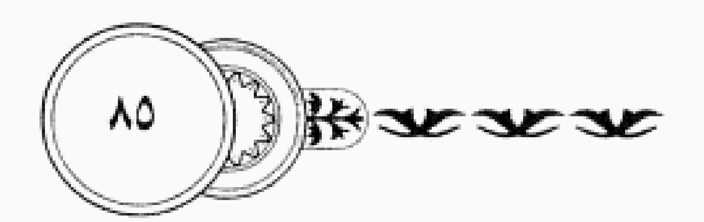
﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[2]

فالغلاة قد ضل سعيهم إذ هم بغلوهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وقد يدخلون في صنف الأخسرين أعمالاً إذا كان غلوهم قد أخرجهم عن الدين الحق والمفهوم الحق.

---

(١) الآية ١٨١ من سورة الأعراف.

(٢) الآيات من ١٠٢: ١٠٥ من سورة الكهف.



وقد يقع الغلو في الدين عن طمع في مصلحة دنيوية وقد يكون مكراً بالدين وأهله من شياطين الإنس الذين يدخلون في الدين نفاقًا ليفسدوه من داخله.

ومثاله واقع لدى بعض الفرق في شأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وذريته، بادعاء العصمة التشريعية وغيرها. وكغلو بعض الفرق أيضًا بالنسبة لبعض صفات الله سبحانه كالقدرية والمجسمة وغيرها.

التفريط والغلو في الأحكام الشرعية

الأحكام التشريعية الدينية في الإسلام حقائق ذات حدود ربانية غايتها تنظيم الطاعة لله ولرسوله وتجويدها، وهي موجهة إلى المكلفين فلا يجوز النقص فيها عما شرعه الله ورسوله إلا بإذن شرعي.

وهذه الأحكام تفهم بالنص الصريح عليها، أو بفحوى النص، أو دلالته الضمنية، أو بالقياس على ما ثبت في النص، أو بكونه نوعًا من مشمولات قاعدة كلية عامة من قواعد الإسلام، كقاعدة وجوب الالتزام بالحق والعدل في الحكم والقضاء بين الناس، وكقاعدة تحريم أكل أموال الناس بالباطل، وكقاعدة تحريم ما غلب ضرره على نفعه، وكقاعدة أن الأصل في الأشياء التي لا ضرر فيها الإباحة.

ومن أحكام الله وجوب طاعة من أمر الله بطاعته من الناس، إذا كان أمره أو نهيه في قضايا أذن الله له فيها بالأمر أو بالنهي، وهذا إنما يكون فيما لم ينزل الله فيه حكمًا تكليفيًا بأمر أو نهي، ولم يرد عن رسول الله ﷺ حكمه بطريق ثابت صحيح، ولم يجعل الله ورسوله فيه للناس حقوقًا خاصة يحرم العدوان عليها، كحرمة الأنفس والأموال والأعراض. وإذا كانت الفرائض الدينية أموراً واضحة لايجوز تضييعها والمحرمات كذلك أموراً واضحة لا يحل انتهاكها، فإن لأحكام الله ورسوله من بعد الفرائض والمحرمات حدوداً لا يجوز تخطيها ولا تجاوزها.

روى الدار قطني وغيره عن أبي ثعلبة الخشني أن النبي ﷺ قال: "إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا

تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها" .. قال النووي هذا حديث حسن.

ولقد وصف القرآن بعض ما جاء به من أحكام بأنها حدود الله ليفهم الناس أن سائر ما أنزل الله من أحكام تشريعية تدخل تحت هذا العنوان (حدود الله).

نجد هذا في سورة البقرة عقب ذكر أحكام تتعلق بالصوم والاعتكاف في المساجد إذ قال تعالى:

((تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ))[1]

وقد نهى هنا عن الاقتراب من حدود الله نهي إرشاد لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وفي سورة البقرة أيضا أحكام في النفقة والقتال في سبيل الله، والقتال في الشهر الحرام، وفي شأن الخمر والميسر واليتامى وفي النكاح وفي المحيض والعدة، ثم قال الله سبحانه بعد بيان تلك الأحكام:

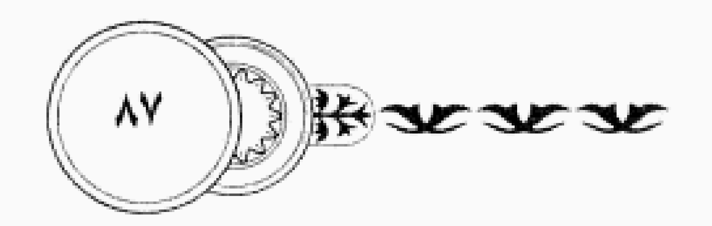
((تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ))[2]

فجاء هذا النهي جازمًا حازمًا بدليل قوله تعالى: في الآية السالف ذكرها.

وسنجد مثل هذا واردًا عقب أحكام تشريعية في سورة النساء وسورة التوبة وسورة المجادلة وسورة الطلاق وغيرها.

(١) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.



ويؤخذ من تلك النصوص القرآنية ومما جاء في السنة النبوية الشريفة أن حدود الله ينبغي حفظها بمستويين.

أحدهما: يكون بعدم الاقتراب منها، وذلك بالحذر والورع والكمال الإيماني ومراقبة الله سبحانه بعداً عن مزالق الخطر.

يدل على هذا قول الله عز وجل:

((تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ))[١]

فالنهي هنا نهي ترغيب بالأكمل، وإرشاد إلى الأفضل، وإلى الأخذ بالأحوط.

والمستوى الآخر:

يكون بعدم تجاوز هذه الحدود، علماً بأن من دخل الحد تجاوزه حتما، لأنه لا يدخل فيه إلا إذا مس المنطقة الحرام.. وهذا مستوى التكليف الجازم الذي يعاقب من خالفه.

ويدل عليه قول الله عز وجل:

((تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ))[٢]

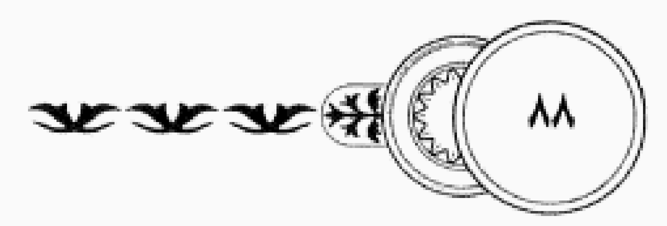
وقول الله عز وجل:

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[٣]

(١) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٤ من سورة النساء.



وقول الله عز وجل:

((وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ))[1]

ومن ثم فالنهي عن تجاوز حدود الله، وتعديها نهي تحريمي قطعًا بدليل ترتيب العقاب ووصف المتعدي بأنه ظالم.

وبذلك، يكون الحكم في الدين دون دليل شرعي كافٍ افتراء على الله وعلى دين الله.

ويصبح من تعدى حدود الله تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، وإيجاب ما لم يفرضه الله، واستباحه وترك ما أوجب الله.

ولقد شدد الله في شأن أحكام الناس في التحريم والتحليل والإيجاب من غير دليل شرعي ووصف الله ذلك بأنه افتراء على الله لأنه سبحانه له الأمر وله الحكم.

فالتحريم الديني والإيجاب الديني والإباحة، إنما يكون كل ذلك لله سبحانه باعتباره حكمًا تشريعيًا من خصائص الألوهية. والطاعة في الأحكام التشريعية عبادة لله منزل الحكم، وفي هذا كانت حكاية مقالة يوسف لصاحبيه في السجن:

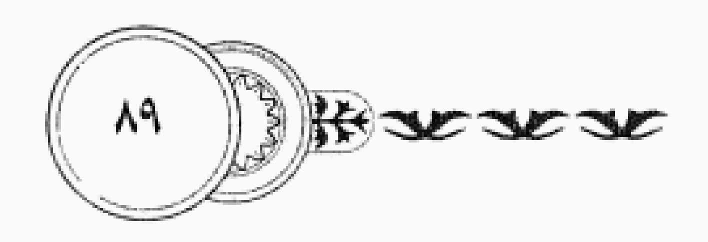
﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]

وفي سورة يونس، قال تعالى:

---

(١) من الآية ١ من سورة الطلاق.

(٢) الآية ٤٠ من سورة يوسف.



﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝ ﴾ (١)

وفي سورة النحل، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾ (٢)

التفريط في الأحكام الشرعية

ويقع التفريط في الأحكام التشريعية باستباحة ما حرم الله أو باستباحة ترك ما أوجب الله.

ومن التفريط حمل ما أمر الله به أمر إلزام، ورتب العقاب على تركه على أنه أمر ندب؛ وحمل ما نهى الله عنه إلزامًا، ورتب العقاب على تركه على أنه مكروه.

ومن التفريط في الأحكام التشريعية؛ التلاعب بدلالات النصوص للتخفيف من درجة الحكم التشريعي المستفاد منها اتباعًا للأهواء أو إرضاءً لأصحابها، كتحليل بعض أنواع الربا وإباحة بعض المسكرات والإذن بجمع الصلوات على غير الصور التي رخص بها رسول الله ﷺ، وكالتهوين من أمر أنواع من الظلم والاحتكارات والغبن الفاحش في التعامل... إلخ

(١) الآيتان ٥٩ و٦٠ من سورة يونس.

(٢) الآيتان ١١٦ و١١٧ من سورة النحل.

"ومن التفريط في الأحكام التشريعية تتبع الآراء الاجتهادية الضعيفة التي لا سند لها والتي تخالف اجتهادات جمهور الفقهاء، وكذلك تتبع رخص المذاهب أو أسهل الآراء منها لمجرد التخفيف من تبعات التكاليف".

ولقد حذر الله من التفريط في أحكامه على أية صورة من صور التفريط؛ فقال في سورة المائدة:

((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا))[1]

ويقاس على هذا كل ما حرم الله؛ فلا يجوز استحلاله لأن استحلاله يكون من التفريط في الدين. وكذلك، كل ما فرض الله وأوجبه لا تجوز استباحة تركه ومن استباح تركه يكون مفرطا في الدين.

الغلو في الأحكام التشريعية

يقع الغلو في الأحكام التشريعية بالتحريم من غير دليل كاف للتحريم، وبالإيجاب والفرضية دون دليل كافٍ لإسباغ هذا الحكم. وليس من الدين ولا من الورع جعل المكروه حراماً ولا جعل السنة فرضًا أو واجبًا، بل إن وقع ذلك كان غلواً في الدين لم يأذن به الله.

إنما الورع يكون بالالتزام بترك المكروه وبالمواظبة على فعل السنة عملا دون رفع حكمها عن مستواها التشريعي الذي أفادته أدلة الاستنباط للأحكام الشرعية. هذا، وقد أصبح ملحوظًا صدور بعض الفتاوى بتحريم أعمال أو إيجاب أعمال لم ينزل فيها دليل موجب للحكم بالتحريم أو بالوجوب.

---

(١) من الآية ٢ من سورة المائدة.

إن من يفعل ذلك آثم لأن في عمله هذا تجنيًا على دين الله وتعدياً لحدود أحكام الله وقد ثبت في الصحيح من كلام رسول الله ﷺ: "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"(١)

ومن الغلو في الدين في الأحكام التشريعية التعصب المذهبي أو التعصب للرأي مع وجود مذاهب أخرى معتبرة كهؤلاء المغالين في أحكام اللباس والزينة وفي أحكام الطهارة الحسية وفي أحكام اللحوم المحرمة وفي أحكام ما يقص من الشعور وما يعفى، وكظاهر الاقتداء بالرسول ﷺ في طريقة أكله وشربه ولباسه ومعاشه ومشيه مع أن هؤلاء الغلاة كثيراً ما يتهاونون في أمور الكبائر المجمع على تحريمها ولا يحذرون الناس منها كالقذف والحسد والغيبة والنميمة وشهادة الزور والكذب وإثارة الفتن واستخدام المراكز الوظيفية للمصالح الشخصية أو الحزبية.

ولقد استنكر القرآن في سورة الأعراف تحريم ما لم يحرمه الله من الزينة فقال:

﴿ ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾(٢)

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(٢) الآيات من ٣١: ٣٣ من سورة الأعراف.

حيث نددت هذه الآيات بالذين يحرمون من زينة الحياة الدنيا ما لم يحرمه الله من ملابس ومآكل ومشارب ونحوها، ووجهت الآيات العناية إلى المحرمات الجوهرية التي حرمها الله وهي: الفواحش ما ظهر منها كالزنا وما بطن كالحسد والشر بالناس، والإثم كشرب الخمر وتعاطي الميسر، والبغي بغير الحق كالقتل عدوانًا وأكل أموال الناس بالباطل والغيبة والقذف وإيذاء الناس في أجسادهم وأعراضهم.

ولقد نبه القرآن إلى خطورة تدخل الناس في أمر التحريم والتحليل حيث أورد أخبار أمم سابقة افتروا على الله كذباً؛ فحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ولقد وصفهم القرآن في سورة الأنعام بأنهم قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (١)

ومن قبلها في سورة المائدة. حيث وصف الله أولئك فيها بقوله:

((وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) (٢)

التفريط والغلو في السلوك الديني

الأجمل في السلوك الديني الرشيد: الاتباع لا الابتداع وكمال هذا السلوك إنما يكون بالاتباع الأمثل لأحكام الله ولسنة رسول الله - ﷺ - القولية والعملية والتقريرية الثابتة، فما نقص عن درجة الكمال كان تقصيرا وزهدا في مرتبتيه:

---

(١) الآية ١٤٠ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ١٠٣ من سورة المائدة.

البر والاحسان أو مرتبة الإحسان. وما نقص عن ذلك من دائرة لأحكام التقوى كان تفريطًا وتهاونًا ومعصية لله سبحانه.

وما زاد على الاتباع الأمثل، وعلى كمال هذا السلوك، فهو غلو وتجاوز لحدود كمال السنة. والتفريط في السلوك الديني يظهر في ثلاث صور:

الأولى:

النقص عن الالتزام بفعل الواجبات وترك المحرمات. وهذا الانتقاص فيه إخلال بمرتبة التقوى.

ويبدأ التفريط بارتكاب الآثام، ويزداد حتى يبلغ درجة الفسوق.

الثانية:

النقص من مراعاة فعل الأولى والأفضل والأحسن، وترك خلاف الأولى والأفضل والأحسن.

هذا والغالب السائد أن المؤمنين - في الجملة - مقصرون في حقوق مرتبة التقوى وظالمون لأنفسهم يخلطون عملا صالحا وآخر سيئاً، ومن ثَم، كان تحذير الله سبحانه في سورة النور في قوله تعالى:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[1]

بمعنى الزيادة على الاتباع الأمثل؛ فمن يترك كسب الرزق من الطرق المباحة ليتفرغ للعبادة المحضة مع أنه وأسرته بحاجة إلى الاكتساب، فقد غالى في السلوك الديني وزاد عن حدود العبادة المحضة زيادة طغت على ما يجب عليه من

(١) الآية ٢١ من سورة النور.

كسب الرزق. ولا يجوز ترك الواجب للغلو في أعمال عبادة هي من جنس العبادات المأذون بها شرعًا، لكن صرف كل الجهد والوقت فيها غير مأذون به نظرًا لأن هذا الجهد وهذا الوقت هما من حق اكتساب الرزق الواجب عليه.

والسلوك الديني المتوازن يقتضي توزيع الجهد على الأعمال المطلوبة بحسب مقتضيات هذه الأعمال؛ حيث جعل الله سبحانه للعبادة المحضة أوقاتًا أوجب فيها السعي لأداء العبادة الواجبة فإذا أتمها الإنسان، كان عليه أن يسعى في الأرض ويبتغي من فضل الله.

قال الله سبحانه وتعالى في سورة الجمعة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾[1]

حيث أمر الله في هاتين الآيتين بالسعي إلى شهود الصلاة من يوم الجمعة وذكر الله فيها وترك الأعمال الدنيوية في ساعة الصلاة فإذا قضيت الصلاة، فإن الله يأمرنا بأن ننتشر في الأرض، ونبتغي من فضل الله رزقنا ومطالب الحياة.

وإذا كانت الزيادة التي جاءت غلوًا على فرض أو واجب لاتفضي إلى ارتكاب محرم وتكون من جنس ما أذن به الشارع كقيام الليل كله للذكر والعبادة، فإن هذا الغلو مخالف للسنة لا محالة، وليس هو الاتباع الأحسن لرسول الله ﷺ: ثم إذا قصر المغالي بسبب غلوه هذا في أعمال أخرى من البر ذات النفع الأكبر له وللإسلام وللمسلمين كان غلوه غير محمود حتمًا.

يدل على ذلك الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال:

---

(١) الآيتان ٩ و١٠ من سورة الجمعة.

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً.

وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبدا ولا افطر.

وقال الآخر: وأنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"(١).

وقد يكون هذا استجابة لهوى من أهواء النفس في نوع العمل الذي. غلا فيه دون ابتغاء اتباع الأفضل لمنهج كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ أو يرجع الغلو إلى تصور خاطىء للأفضل عند الله ـ كهؤلاء الذين يتصورون أن زيادة الأجر إنما تكون على زيادة المشقة وتعذيب النفس في عبادة الله تعالى مع عدم الحاجة إلى ذلك، كمن يحج ماشياً وهو مستطيع أن يحج راكبًا وكمن يصلي في الشمس تعذيباً لنفسه وعنده ظل يستطيع أن يصلي فيه.

وفي ذلك، القصة التي رواها البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "بينما النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم.

فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه".

وكمن يكلف نفسه الصيام في السفر الشاق في صيف شديد الحر وقد أذن الله له بأن يفطر ورخص في ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ومن أمثلة الغلو في السلوك الديني في عصرنا هذا:

السفر للحج كل عام، والغلو بأداء العمرة مرات ومرات وبذل الأموال في هذا السبيل مع أن هناك مجالات إسلامية كثيرة بحاجة ماسة إلى هذه الأموال لنشر دين الله وتعليم الجاهلين به.

كذلك، هناك مؤسسات خيرية تحتاج إلى هذه الأموال، وإقامتها أنفع للمسلمين وأحب عند الله وأفضل.

ومن الغلو في السلوك، حرص بعض الناس على تقبيل الحجر الأسود مع ارتكاب معصية الله بمدافعة المسلمين والمسلمات وإيذائهم والتعرض لانتهاك حرمة من حرمات الله عند بيت الله.

ومثله؛ الحرص على الصلاة عند مقام إبراهيم عليه السلام مع ارتكاب معصية إيذاء الطائفين والطائفات بالتضييق عليهم في مطافهم. ومن الغلو في السلوك الديني إطالة الصلاة في ركوعها وسجودها إلى حد السأم ونفور النفوس لاسيما إذا كان المغالي في هذا إماماً للناس وممن يُقتدى بهم.

القرآن والعمل بالسنة النبوية

لفظ السنة معناه في اللغة: الطريقة ـ ومنه قول الله سبحانه في سورة الفتح:

((وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً)) [1]

وجاء في الحديث الذي رواه مسلم: "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة" [2]

والسنة في الاصطلاح الشرعي:

ما صدر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.. والسنة القولية هي أحاديثه ﷺ التي نطق بها مثل قوله الذي رواه مالك وغيره: "لا ضرر ولا ضرار"

والحديث المتفق عليه: "إنما الأعمال بالنيات".

والسنة الفعلية هي أفعاله ﷺ مثل أدائه ـ الصلوات الخمس بهيئاتها وأركانها وأدائه مناسك الحج وسلوكه في القضاء وتقرير أصول المحاكمات.

والسنة التقريرية هي ما أقره الرسول ﷺ مما صدر عن بعض أصحابه من أقوال وأفعال، وذلك بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته الصريحة وإظهار استحسانه؛ فيعتبر الإقرار والموافقة عليه صادراً عن الرسول ﷺ نفسه.

مثل ما روي من أن صحابيين خرجا في سفر وحضرتهما الصلاة ولم يجدا ماءً فتيمما وصليا ثم وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما صلاته ولم يعد الآخر، فلما

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الفتح.

(٢) صحيح مسلم.

قصا على الرسول ﷺ أقر كلا منهما على ما كان منه، وقال للذي لم يعد الصلاة: أصبت السنة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي أعاد الصلاة: "لك الأجر مرتين"[1].

حجية السنة:

أجمع المسلمون على أن ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير مقصود به التشريع والقدوة وثبت نقله بسند صحيح مفيد القطع أو الظن الراجح بصدقه يكون حجة على المسلمين ومصدراً تشريعيًا يستنبط منه المجتهدون الأحكام الشرعية لأفعال المكلفين.

وهذا يعني أن الأحكام الواردة في هذه السنة تصبح مع الأحكام الواردة في القرآن الكريم قانونًا واجب الاتباع.

دلائل حجية السنة النبوية:

من القرآن الكريم

جاء في القرآن آيات كثيرة آمرة بطاعة رسول الله ﷺ، وجعل طاعته طاعة لله سبحانه.

وأمر القرآن المسلمين إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله وإلى الرسول. ولم يجعل للمسلمين خياراً إذا قضى الله ورسوله أمراً، ورفع القرآن وصف الإيمان عمن لم يستجب إلى قضاء الرسول ولم يذعن له وذلك كله وغيره برهان من الله سبحانه على أن ما شرعه رسول الله هو تشريع إلهي واجب اتباعه والإذعان له.

ومن هذه الآيات:

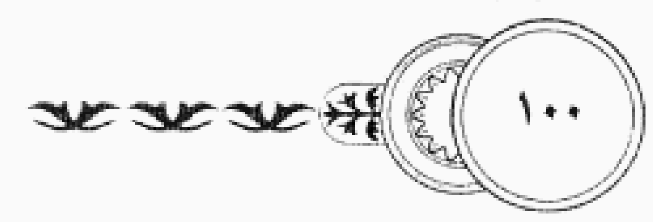
قول الله سبحانه في سورة آل عمران:

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[2]

---

(١) رواه أبو داود والنسائي.

(٢) الآية ٣٢ من سورة آل عمران.



وقوله تعالى في سورة النساء:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾[1]

وفي ذات السورة قول الله:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ ﴾[2]

وفي سورة الحشر:

((وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ))[3]

ثم إن للقرآن فرائض مجملة لم تفصل أحكامها ولا كيفية أدائها كالصلاة والزكاة والصوم. حيث جاءت نصوص القرآن في شأنها إجمالا دون بيان صريح لعدد الصلوات ولا كيفية أدائها ولا مواقيتها، وكذلك الصوم والحج؛ بينت نصوص القرآن بعض الأحكام دون البعض، وفي الزكاة لم يبين القرآن الأحوال التي تجب فيها الزكاة ومقدار النصاب وكل نوع منها.

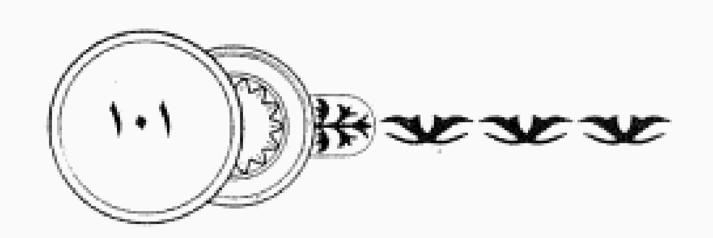
ولقد بين الرسول ﷺ هذا الإجمال بسنته قولا وعملا بإذن من الله سبحانه في قوله تعالى في سورة النحل:

---

(١) الآية ٨٠ من سورة النساء.

(٢) الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٣) من الآية ٧ من سورة الحشر.



((وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))[1]

فإذا لم تكن هذه السنة البيانية حجة على المسلمين، وشرعًا واجب الاتباع، لتعذر تنفيذ ما فرضه الله في القرآن، ولتعذر كذلك اتباع أحكامه.

هذا وتعتبر السنة ـ من جهة الاحتجاج بها واستنباط الأحكام الشرعية منها المصدر الثاني أي التالي للقرآن الكريم بحيث أن المجتهد لا يرجع إلى السنة للبحث عن حكم واقعة إلا إذا لم يجد الحكم في القرآن، يدل على هذا المنهج حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن قاضيا حيث سأله بم تقضي إذا عرض لك القضاء؟ فقال بكتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله. قال: اجتهد رأيي ولا آلو.[2]

وقد أقر الرسول ﷺ قول معاذ هذا وَسُرَّ بهِ.

وما جاء في السنة من أحكام تشريعية ثلاثة أنواع:

أ- أن تكون سنة مقررة ومؤكدة حكمًا جاء به القرآن، فيكون للحكم مصدران القرآن والسنة.

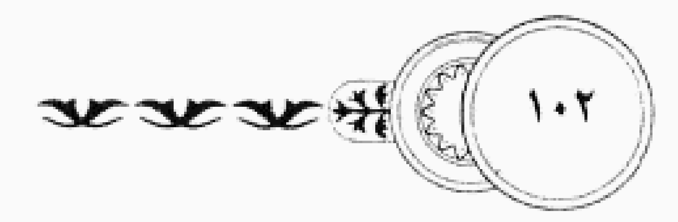
ومن هذا القبيل؟ الأمر بإقامة الصلاة وأداء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والنهي عن الشرك بالله وغير هذا من المأمورات والمنهيات التي دلت عليها آيات القرآن وأيدتها السنة.

ب- وقد تكون السنة مفسرة ومفصلة لما جاء مجملاً في القرآن أو مقيدة لما جاء مطلقًا أو مخصصة لما جاء عامًا وذلك كالسنة التي بينت مواقيت الصلاة وأركانها وهيئاتها وأنصبة الزكوات وأنواع الأموال ومناسك الحج.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة النحل.

(٢) رواه أحمد في مسنده.



ج- وتأتي السنة منشئة أو مثبتة لحكم سكت عنه القرآن:

((وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا))[(١)]

فيكون هذا الحكم ثابتا بالسنة فقط كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها على عصمة رجل واحد، وتحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجل المسلم، وما ورد في حديث:

"يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب"[(٢)]

وهذه الأنواع من السنة التشريعية هي التي أشار إليها الإمام الشافعي في رسالته في الأصول بقوله:

"لم أعلم من أهل العلم مخالفًا في أن سنة رسول الله ﷺ من ثلاثة وجوه أحدهما: ما أنزل الله عز وجل فيه نص كتاب، فسنة رسول الله مثل نص الكتاب.

والثاني: ما أنزل الله عز وجل فيه نص مجمل، فسن عن الله معنى ما أراد.

والوجه الثالث: ما سن رسول الله سنة مما ليس فيه نص كتاب.

فهل بعد هذا يقال من بعض الناس بالرجوع إلى القرآن وحده.

ألا إن الله قال في سورة الأحزاب:

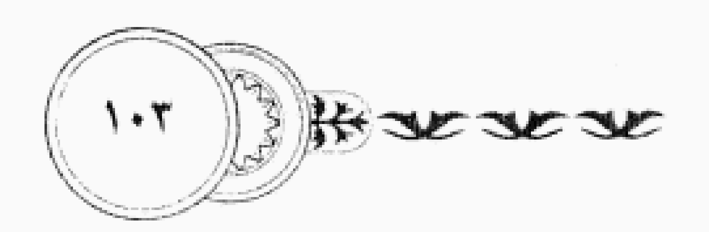
﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[(٣)]

---

(١) من الآية ٦٤ من سورة مريم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.



وقال في سورة النساء:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (١)

(١) الآية ١١٥ من سورة النساء.

أدب الدعوة كما علم الله رسوله في القرآن

لنتلو قول الله في سورة يونس:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]

هذه مهمة الرسالة والدعوة إلى دينه الذي كلفه الله بإبلاغه ثم رسم له طريق الدعوة في قول الله في سورة النحل:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2]

ويعرض لنا القرآن في الكثير من الآيات لغة العرض والحوار بين الرسول وأولئك الذين تلقوا عنه الدين .. ففي سورة الزمر:

((قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ))[3]

---

(١) الآية ١٠٨ من سورة يونس.

(٢) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

(٣) من الآيات ١١: ١٥ من سورة الزمر.

وفي سورة الشورى:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

وفي سورة يونس:

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[2]

وهكذا توالت آيات القرآن توجه النبي إلى حوار عف مستقيم، قويم الحجة. ففي سورة آل عمران:

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾[3]

هذه بصائر من القرآن للدعاة إلى الله، فهم الأمناء على الدعوة إلى الإسلام. وعليهم أن يتبعوا توجيهات القرآن إلى رسول الله في الحوار والمحاجة لتصل أقوالهم إلى قلوب الناس فينيبوا إلى ربهم خشعًا سجدًا صالحين معلمين.

---

(١) الآية ١٥ من سورة الشورى.

(٢) الآية ٤١ من سورة يونس.

(٣) الآية ٢٠ من سورة آل عمران.

وبذلك، تنجاب عنا ظلمات الحياة وينير الله بصائرنا بالهدى ودين الحق.

ارتفعوا أيها الدعاة عن اللدد واللجاجة فيما لا ينفع الناس في دينهم ودنياهم.

ذلك قول الله لرسوله في سورة هود:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾(١)

هذا القرآن قد تأدب به الرسول وعلمه الله به ما لم يكن يعلم. فقد وجه الرسول إلى الإقبال على من آمن به وصدق رسالته مهما كان وضعه في المجتمع.

ذلك قول الله في سورة الأنعام:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾(٢)

وقول الله سبحانه في سورة الكهف:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾(٣)

ونحن نتحدث بما تحدث به القرآن عن رسول الله ﷺ لنضع أمام الذين يمارون في سنة رسول الله أو يقيسونها بعقولهم هذه الحقيقة التي قررها القرآن

---

(١) الآية ١١٢ من سورة هود.

(٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٢٨ من سورة الكهف.



وهي: أنه إن كان هذا الرسول إنسانًا، لكنه نبي ورسول، تلقى وحي ربه، وأُمر بإبلاغه إلى الناس كافة. ليس هذا فحسب، وإنما كلفه الله ببيان وشرح وحيه وآياته.

ذلك قول الله في سورة النحل:

((وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))(١)

وقوله في سورة النحل أيضاً:

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(٢)

وكانت طاعة الرسول طاعةً لله، كما هو منطوق قول الله في سورة النساء:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾(٣)

وآيات كثيرة تقرر ذلك وتؤكده وتجعل طاعة الرسول ﷺ طاعة لله. ومن البدهيّ أن يكون عصيانه والإعراض عن سنته قولاً أو فعلاً أو تقريرًا عصيانًا لمن أرسله الله وأوحى إليه.

فهل مع هذه الأوامر القطعية يقوم من يناهض السنة وينحيها عن الأعمال، ويقول على الله وعلى رسوله بغير علم.

على هؤلاء الذين يصطنعون الحجج أن يعلموا أن حجتهم داحضة عند ربهم وليسمعوا قول الله في القرآن في سورة النساء:

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة النحل.

(٢) الآية ٦٤ من سورة النحل.

(٣) الآية ٨٠ من سورة النساء.

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[1]

وقول الله في سورة الأنفال:

((وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ))[2]

وفي سورة المجادلة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[3]

بل وفي سورة الأحزاب قول فصل - قول الله:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[4]

هذه سنة رسول الله يأمر القرآن بالتزامها، فإنها وحي من الله وبأمره، ليس ذلك فحسب، بل لنسمع تأديب الله للمؤمنين مع رسوله

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[5]

(١) الآية ١٤ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٣ من سورة الأنفال.
(٣) الآية ٢٠ من سورة المجادلة.
(٤) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.
(٥) الآية ٦٣ من سورة النور.

الأدب مع رسول الله، كما يعلمنا القرآن .. يتصل بهذا قول الله في سورة الحجرات:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ ﴾[1]

(١) الآيات من ١:٣ من سورة الحجرات.

الرسول في القرآن

كيف تحدث القرآن عن الرسول ﷺ؟

قرر القرآن أنه بشر مثل من سبقه من الرسل، ذلك قوله تعالى في سورة الكهف:

((قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ))[1]

وقوله تعالى في سورة الأحقاف:

((قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ))[2]

ولما جادله قومه وسألوه أن يأتيهم بما يعجز عنه الناس، أوحى الله إليه قرآنًا يجيب به مقرراً أنه لم يخرج عن كونه بشراً، نرى هذا الحوار في قوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[3]

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٩ من سورة الأحقاف.

(٣) الآيات من ٩٠:٩٣ من سورة الإسراء.

نعم: محمد بشر رسول، أكد القرآن ذلك وسجله في غير موضع من آياته. ذلك قول الله في سورة البقرة:

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾[1]

وفي سورة التوبة:

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2]

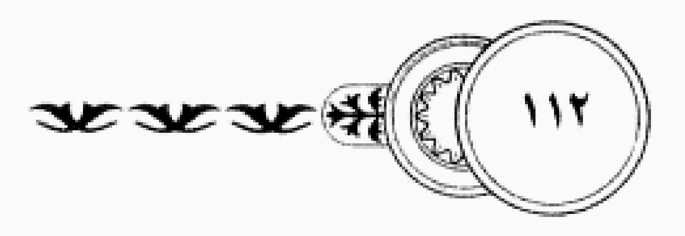
ولأنه بشر فله خصائص البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويتزوج النساء ويولد له، كما كان لمن سبقه من الرسل أزواج وذرية، وهو رسول الله يبلغ آياته وأحكامه ويجتهد فيما يقع من حوادث، فيقره الله على اجتهاده أو يعاتبه الله عليه، كما في قصة أسرى بدر وإطلاق سراحهم بالفدية، وكما في قضية تزوجه ﷺ بمطلقة ابنه بالتبني وبإبطال ما كان عرفًا عند العرب، فيما وقع من رسول الله ﷺ مع واحدة من أزواجه وتحريمه على نفسه بعض ما أحل الله إرضاء لها، بل وعتاب الله رسوله في شأن عبد الله بن أم كلثوم: قال تعالى:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا

---

(١) الآية ١٥١ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.



يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا
تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾[1]

نعم إنها تذكرة وفقه لأمة القرآن ألا يعرضوا عن ضعفائهم وفقرائهم الذين امتلأت قلوبهم إيمانًا ويقينًا بهذا القرآن، أملاً في استجابة من أعرض ونأى بجانبه. إنها تذكرة لهؤلاء الذين اصطنعوا المراء والجدل وتشكيك المؤمنين.

نعم: إنها دعوة وجهها الله سبحانه لرسوله ومن ورائه الدعاة إلى الإسلام ألا تعرضوا عن تعليم طالب العلم المخلص في طلبه، تصحيحًا لعقيدته وتنشيئًا لإيمانه، وتعليمًا لأحكامه التفاتًا وأملاً في أولئك الذين انغلقت قلوبهم عن ذكر الله، والفقه في دينه.

وإذا كان القرآن قد قرر بشرية رسول الله محمد ﷺ الذي أوحى إليه هذا القرآن، وأنه يجري عليه ما يجري على سائر البشر في لوازم الحياة البشرية ومتطلباتها فإن القرآن أعلمنا أن هذا الرسول ليس بشرًا عاديًا على المستوى الذي عرف بين الناس، وإنما كان إنسانًا اختصه الله بما هيأه لتلقي الوحي وملاقاة الملك، وأضفى عليه ما أعده لتحمل الأمانة وأداء الرسالة الخاتمة لرسالات الله إلى خلقه، بأن أحاطه بعنايته منذ طفولته، فنشأ مرعيًا من الله كما تحدث القرآن.

ففي سورة الضحى:

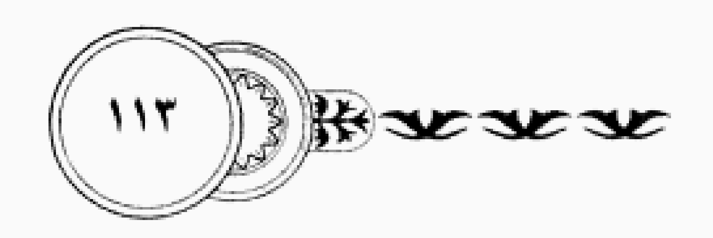
﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[2]

وأعطاه ما يكسب به مودة الناس وتقديرهم وارتباطهم به..

---

(١) من الآيات ١:١٢من سورة عبس.

(٢) الآيات من ٦ : ٨ من سورة الضحى.



ففي سورة آل عمران:

((فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ))(١)

ثم تعهده الله بالرعاية والحماية بعد الرسالة. ففي سورة النساء:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾(٢)

وفي سورة الإسراء:

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾(٣)

ويسبغ الله على رسوله حمايته حين يأمره بالبلاغ والإبلاغ للناس ذلك قول الله في سورة المائدة:

((وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ))(٤)

نعم: قد عصم الله نبيه محمدا ﷺ من الناس. فكم حاول المشركون التعدي عليه والقضاء عليه، يظهر ذلك جليًا مما دار بين رسول الله وبين أعدائه من معارك حفظه الله فيها ودافع عنه ومهد له سبيل النصر والفوز.

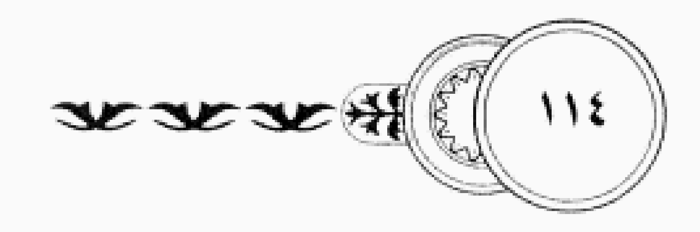
---

(١) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١١٣ من سورة النساء.

(٣) الآية ٧٤ من سورة الإسراء.

(٤) من الآية ٦٧ من سورة المائدة.



حب الرسول ﷺ

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"[(١)].

وعن عبد الله بن هشام قال: " كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله: لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي فقال النبي ﷺ: لا .. والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر فإنه الآن: والله لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر"[(٢)].

الحب هنا توقير واحترام واتباع، فلم يكن الرسول ﷺ بهذا القول منبهاً إلى حقه الذاتي بقدر ما هو الداعي إلى ربه.

لقد كرمه الله فارتفع به إلى سدرة المنتهى، وأراه من آياته الكبرى، ثم دعا المسلمين إلى توقيره واحترامه:

((ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ))[(٣)]

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[(٤)]

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي وابن ماجه.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) من الآية ٦ من سورة الأحزاب.

(٤) الآية ٦٣ من سورة النور.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ ﴾(١)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ ﴾(٢)

فكلما امتلأ قلب المؤمن يقينًا بالله، امتلأت جوانح نفسه حبًا وإعزازًا لمحمد رسول الله ﷺ: فهو صاحب الرسالة الهادية وهو الرحمة المهداة من رب العالمين.

ذلك وصف القرآن له قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ ﴾(٣)

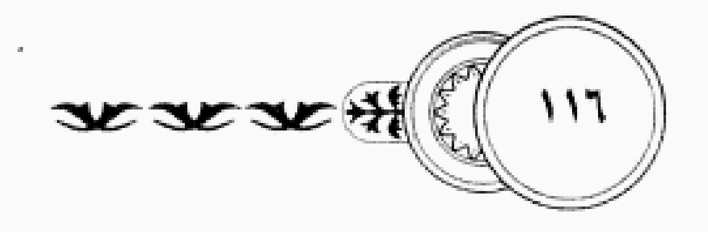
ففي هذه الآية تبيان لمنة الله تعالى على الإنسانية، تلك هي رسالة النبي محمد ﷺ، ووصفه إياه بأوصاف عالية رفيعة انعكست من ذات نفسه التي طبعها الله عليها مودة ورحمة ورأفة وحرصًا على النجاح والفلاح للمؤمنين.

---

(١) الآيتان ٢و ٣ من سورة الحجرات.

(٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.



ومن فيض هذه الأوصاف الربانية، جاء قوله ﷺ: " أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً – أي أقارب فقراء فإليَّ وعليَّ "[1].

وبهذا، أصَّل الإسلام منذ أربعة عشر قرناً مسؤولية ولي الأمر عن فقراء الرعية وذوي الأعذار والحاجات أو ما نسميه بالضمان والتأمين الاجتماعي، لا استيراداً لمبادئ لا ترقى إلى ما تقرر وتأصل في الإسلام.

ولقد وصفه القرآن الكريم بأنه النور .. النور الذي يشع للبشرية بالهداية:

((قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ))[2]

فالرسول ﷺ هو النور والكتاب المبين وهو القرآن..

فهو نور بذاته وبسنته وهو مصدر الهداية وهو السراج المنير ذلك قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾[3]

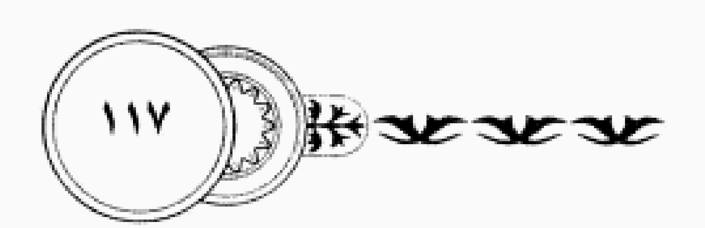
ولما عجز الناس عن معرفة طاعة الله، أرسل إليهم رسوله بشراً منهم نشأ بينهم. قال تعالى:

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) من الآيتين ١٥ و١٦ من سورة المائدة.

(٣) الآيات من ٤٥:٤٧ من سورة الأحزاب.



﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾(١)

لقد طبعه الله على الرأفة والرحمة وأخرجه إلى الخلق يبلغهم رسالته صادقًا. وجعل طاعته، وموافقته موافقة وطاعة لله ومحبة له، فقال تعالى:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ ﴾(٢)

وقال:

﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾(٣)

وقال سبحانه:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(٤)

لقد اختاره الله لرسالته، واصطنعه لنفسه فنشأ عظيم الأخلاق، كامل الأمانة، عالي الهمة، بعيداً عن الدنايا، يجتمع له من خلال المروءة، وشواهد الكمال وخلائق النبل ما يتفرق في غيره من الناس.

وبهذا زين الله تعالى محمداً ﷺ بالرحمة، ففي بعثته وفي وجوده رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن التزم كتابه وسنته واهتدى بهداه فقد أصاب نصيباً من رحمته وكان من الناجين في الدارين من كل مكروه.

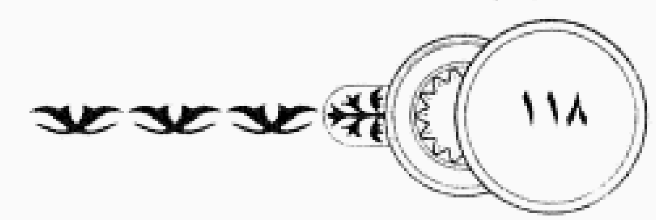
---

(١) الآيتان ١٥١ و١٥٢ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨٠ من سورة النساء.

(٣) الآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.



وكيف لا يكون الرسول ﷺ في كل قلب، وقد رفع الله ذكره بالنبوة وقرن اسمه باسمه؟ نرى ذلك في كلمة التوحيد وعلامة الإسلام: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وفي الأذان والإقامة كل يوم خمس مرات في كل مسجد ومكان تقام فيه الصلاة.

وفي الأمر بالإيمان قال سبحانه:

((فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ))(١)

وفي الصلوات مقرونًا اسمه باسم ربه في كل تشهد.

ذلك وغيره نفاذًا لوعد الله:

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾(٢)

وكانت عناية الله تلاحظه، منذ ولادته وعين الله ترعاه، وأخبار هذه الرعاية ثابتة في الصحيح. روى مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن".

لقد كان محمد ﷺ محفوظًا بحفظ الله، وكانت حياته نظامًا مؤتلفًا، ونسقًا نبويًا، سواء قبل البعثة أم بعدها.

فما تدنس بشيء من أدناس الجاهلية، ولا مال إلى ما يألفه أبناؤها، ولا تأخرت عنه رعاية الله لحظة في حياته، فكانت حركاته وسكناته ﷺ تسديدًا من الله لحكمة يعلمها سبحانه، ولا ينبغي أن تقرأ السيرة النبوية إلا في هذا الإطار.

ومن هنا وجبت طاعته ﷺ، وأُمرَ المسلمون باتباعه فيما يقول ويفعل وفيما يأتي، ويذر ..

---

(١) من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٤ من سورة الشرح.

يقول الله سبحانه:

((فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ))(1)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(2)

ويؤكد الوحي وجوب الطاعة لرسول الله في آيات كثيرة منها قوله سبحانه:

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(3)

((ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ))(4)

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾(5)

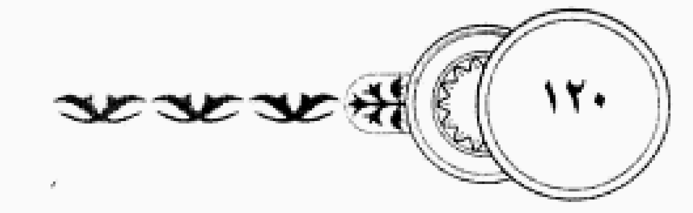
وعموم الأمر في هذا المجال أن يتخذ المسلمون من رسول الله أسوة لهم في جليل شؤونهم وصغيرها.

وهذا النبي ﷺ هو الشفيع للناس لدى رب العالمين في اليوم الآخر، وهو الشهيد على من سبقه من الأمم، قال سبحانه:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾(6)

---

(1) من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.
(2) الآية ٣١ من سورة آل عمران.
(3) الآية ٥٦ من سورة النور.
(4) من الآية ٢٤ من سورة الأنفال.
(5) الآية ٨٠ من سورة النساء.
(6) الآية ٤١ من سورة النساء.



روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع".

نعم، كلما ازداد نور الإيمان في قلب المؤمن زاد توقيره لأفضل الخلق محمد ﷺ وتمكن حبه من قلبه، فقد جمع الله من صفات الجمال والكمال والجلال والرأفة والرحمة بالمؤمنين ما لم يبلغه بشر، فكانت محبته عليه أفضل الصلاة والسلام تملأ قلب كل مؤمن.

ولقد حفلت كتب السنة النبوية بمآثر الرسول محمد ﷺ وذخرت كتب السيرة بذكر الأحداث في حياته فجمعت من مشاهد هذا الجمال والكمال والجلال في سيرته ما يبهر كل ذي لب واعٍ وكل ذي رأي بصير.

ولا تزال السيرة النبوية كنزًا زاخرًا وموردًا كريمًا يوحي بالمعاني العطرة والمثل الباهرة، والمواقف التي تقف البشرية حيالها خاشعة.

إن محمدًا ﷺ رسول من عند الله، لا تقاس أعماله بمقاييس العامة من الناس وإنما تقاس أقواله وأفعاله بمقياس الرسالة، فلا توضع إلا في ميزان النبوة، ولا تنفصل عن هداية الوحي وأمان العصمة وشواهد التأييد من الله.

والرسل عليهم السلام – وقد أعدهم الله في غيب القدر لهداية البشر – لهم سمت خاص طبعهم الله عليه، وحفظهم فيه:

((ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ))(١)

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

لقد قال الله لموسى عليه السلام:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾(١)

فكان هذا الذي حدث لموسى قدرًا حكيمًا، وإعدادًا للرسالة.

وعيسى عليه السلام وهو في مهده:

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾(٢)

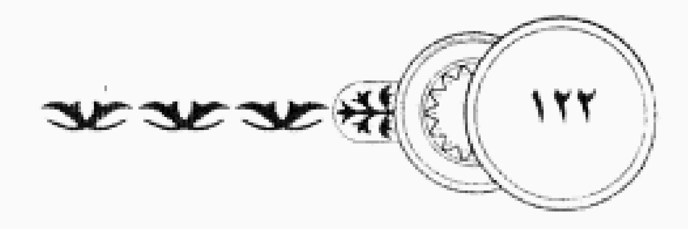
ومحمد عليه السلام قال الله له:

((وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ))(٣)

(١) الآيات من ٣٧:٤٠ من سورة طه.

(٢) الآيتان: ٣٠ : ٣١ من سورة مريم.

(٣) من الآية ٤٨ من سورة الطور.



وقال:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[1]

وقال:

((وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ))[2]

صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، وجزاه الله عنا خير ما يجزى النبيين والمرسلين عن أممهم، فإن حبه والصلاة عليه عبادة كما أمر الله في قوله:

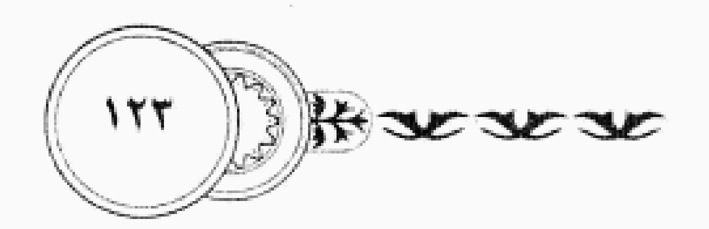
((إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ))[3]

---

(١) الآية ١١٣ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٦٧ من سورة المائدة.

(٣) من الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.



وصايا نبوية

روى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال:

كنا في مجلس رسول الله ﷺ فقال:

" تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فأخذ به في الدنيا فهو كفارة وطهور، ومن ستره الله فذلك إلى الله عز وجل إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له"..

نبه هذا الحديث الشريف على أمور من كبائر الآثام، بل هي من الفرقان بين الكفر والإيمان، وهذه النواهي تحوي في مقابلها أوامر.

لقد بدأت هذه الكلمات النبوية بالنهي عن الشرك بالله، أي شرك، فمقابله تأصيل العقيدة، إذ هي بالنسبة للمسلم مسألة أكبر من الموت ومن الحياة، فهي مدار الخلود الأبدي في الجنة أو النار، وعليها وبها تقبل الأعمال الصالحة، إن كانت العقيدة صالحة نقية، وترفض الأعمال إذا كانت العقيدة فاسدة، تلك قاعدة سادت كل الديانات التي بعث الله بها رسله، ففي سورة الزمر قال الله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[١]

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الزمر.

والنهي عن الشرك بالله يتضمن الأمر بتوحيده سبحانه، توحيد ألوهية، وتوحيد ربوبية، وتوحيد ذات وتوحيد حكم. (إن الحكم إلا لله) كلمة حق ينبغي أن تستقر في كل وجدان، وأن ترتقي بها حياة الإنسان.

ثم كانت حماية الأموال بالنهي عن السرقة، وبالتبعية شيوع الأمن والأمان، واستقرار المجتمع المسلم، بل الإنساني، وانصرافه إلى التعمير والإنتاج لتتوفر حاجات الناس المعاشية وليعمل كل الناس، فلا يكون منهم من يعدو على كسب الآخر، بل الجميع يعملون الأعمال المشروعة التى تعمر بها الدنيا وتزدهر، ومن هنا كانت العقوبة على السرقة رادعة زاجرة تُذكِّر السارق بجرمه، ذلك من قول الله:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]

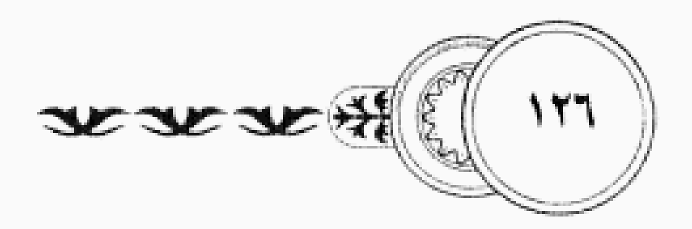
والنهي عن الزنا دعوة إلى العفة وإلى الحفاظ على نقاء الأعراض وسلامة الأبدان، إذ بها تتواصل الأرحام نقية، قوية، وتسلم الأجساد مما ظهر وثبت وجوده من أمراض تناسلية لا توجد إلا حيث تشيع هذه الفاحشة، وإن هذا النهي أيضاً دعوة إلى بناء الأسرة على تقوى من الله ورضوان.

يدل هذا الحديث الشريف: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج .. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"[2].. ففيه توجيه للموسر المستطيع الذي توافرت لديه نفقات الزواج ووسائل القيام بأعباء الأسرة، ثم نصح لمن قصرت موارده عن الوفاء بكل ذلك أن يجابه هذه الحاجة بترشيدها وكبحها انتظاراً لفرج الله وهو قريب إن شاء الله.

والنهي عن قتل الأولاد خشية العيلة، أي الكثرة، وخيفة الفقر، كما جاء في قوله تعالى:

(١) الآية ٣٨ من سورة المائدة.

(٢) رواه البخاري ومسلم.



((وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ))[1]

وفي قوله تعالى:

((وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ))[2]

ولننظر إلى التغاير بين عبارتي الآيتين لنوقن كما قال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[3]

وقد يجرنا الحديث عن القتل البدني للأولاد إلى ما ساد في عصرنا من القتل المعنوي بإهمال التربية والتنشئة على هدي الإسلام وتعاليمه، هذه التربية التي وضع الرسول ﷺ قاعدتها في حديثه الشريف: "علموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعًا واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً"[4].. وفي غير هذا من الوصايا والتوجيهات إلى العناية بتربية الأولاد التربية الشاملة، ولعل القرآن قد وجه إلى هذا توجيهًا عامًا قاطعًا في قول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[5]

---

(١) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٣١ من سورة الإسراء.

(٣) الآية ٥٨ من سورة الذاريات.

(٤) رواه البزار.

(٥) الآية ٦ من سورة التحريم.

إذ الوقاية لا تكون إلا بالتعليم والإرشاد والصيانة، وهذه الآية ناطقة بالمبدأ الذي يقول: الوقاية خير من العلاج.

ونهى الحديث عن مقارفة البهتان والإتيان به، والبهتان هو الباطل من القول والفعل الذي يؤدي إلى الحيرة، كما يطلق البهتان على الكذب والنعت بصفات ليست في المنعوت فتحيره وتوقعه مع السامعين في دهشة ومفاجأة، وهذه دعوة من الرسول ﷺ إلى العفة في القول والصدق في العمل، وخص الأيدي والأرجل بالافتراء، لأن معظم الأفعال تقع بهما.

وفي الحديث النهي أيضاً عن عصيان الرسول ﷺ في كل معروف جاء به قولاً أو فعلاً، فسنته ماضية لا يحيد عنها إلا هالك ولا يتأولها إلا من كان في قلبه مرض، وبهذا جاء قول الله سبحانه وتعالى:

((وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟))(١)

ثم كانت خاتمة هذه المبايعة الجامعة الوعد الحق فإن من وفى بما عنه نهى وبما بضده أمر، فأجره على الله:

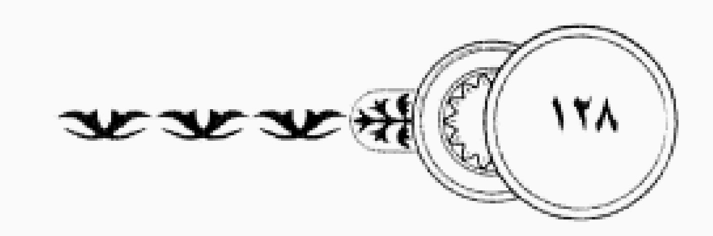
((مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا))(٢)

وفي تفويض الأجر إلى الكريم انتظارٌ لعطائه بدون حدود، أما من وقع في شيء من هذه المحاذير فعجل الله له العقاب في الدنيا، كان هذا كفارة لذنوبه التي قارفها وطهوراً من الدنس الذي وقع فيه، أما من ستره الله حين وجده حيث نهاه، فلم يعلم أحد من الخلق بما اقترف من سوء ولم يلحقه بما يكفر ذنبه، فأمره مفوض لربه، إن شاء عذبه بهذا الذنب في الآخرة وإن شاء غفر له.

---

(١) من الآية ٧ من سورة الحشر.

(٢) من الآية ١٦٠ من سورة الأنعام.



وهذا الحديث علم مخصوص وموضع التخصيص قوله ﷺ: "من أصاب شيئًا.." إلى آخر الحديث، إذ المراد بهذا ما يساوي الشرك بالله.. وإلا فالشرك بالله لا يغفر ولا تكون عقوبته في الدنيا كفارة، فقتل المرتد عن الإسلام في الدنيا لا يعتبر تطهيراً له، لأنه قتل مشركًا:

((إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ))(١)

ولقد عدّ الحديث بعض الجرائم وهي في جملتها من الكبائر إبرازًا لخطرها على فاعلها وعلى المجتمع، وليس على طريق الحصر للمعاصي، فإن هناك ذنوبًا أخرى كشرب الخمر وأكل الربا وشهادة الزور.

والحديث دليل لمذهب أهل السنة الذين يقولون بأن غير الشرك من المعاصي ـ إذا مات مرتكبها قبل التوبة منها ـ فإن أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. وهو دليل كذلك على أن من ارتكب من الذنوب ما يوجب الحد وأقيم عليه الحد سقط عنه الإثم ـ فيما عدا الردة عن الإسلام ـ فالحدود كفارات للذنوب وليست مجرد عقوبات.

فهل لنا أن نبايع الرسول ﷺ ؟

قال تعالى:

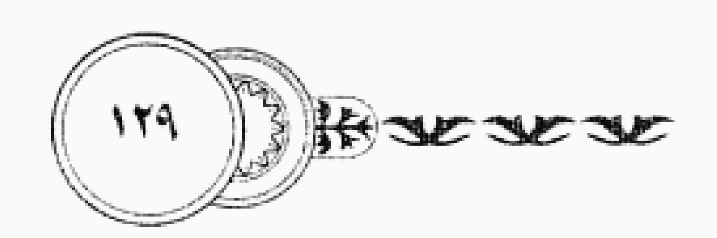
﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾(٢)

صدق الله العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة النساء.

(٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران.





(١) رحمته ﷺ بالمؤمنين

في آية سورة التوبة التي تحدثنا عنها سابقًا قول الله سبحانه عن رسول الله ﷺ أنه:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾(١)

ولقد زخرت كتب السيرة والسنة الشريفة بشواهد تطبيقية لرأفة الرسول ﷺ بالمؤمنين، بل وبالخلق أجمعين: من هذا ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا" . أليس في هذا التطبيق لرأفته ورحمته بأمته دون نظر إلى ما كان يلاقيه من عنت قومه وتصديهم لدعوته، منكرين متكبرين معتدين على من آمنوا به وبدعوته، ومع كل ذلك ادخر دعوته المستجابة إلى وقت تحتاج إليها أمته ليشفع لها يوم العرض على الله.

وهذا آية حبه وصفائه وشفقته وكمال رحمته بأمته.

ثم إن المتتبع لسيرة الرسول ﷺ وسنته يجد الكثير الوفير من المثل على شفقته ورأفته ورحمته بأمته أفرادًا وجماعةً، بل وقد امتد بره ورحمته إلى الناس

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

جميعًا، فهو القائل فيما أخرجه الإمام أحمد والحاكم: "لاتنزع الرحمة إلا من شقي ومن لا يرحم لا يرحم والراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

كما امتد بره ورحمته إلى الفقراء والمساكين حتى بعد الموت.

روى البخاري أن النبي ﷺ ذكر ذات يوم رجلاً أسود فقال: "ما فعل ذلك الإنسان؟ "قالوا مات يا رسول الله، فقال: "أفلا آذنتموني"؟ فقالوا: إنه كان كذا وكذا محقرين من شأنه. فقال: "فدلوني على قبره" فأتى قبره فصلى عليه.

رحمته بالصغار

جاء في كتب السنة واقعات ذات بالٍ تدلنا على رحمة الرسول ﷺ ورعايته للصغار.

من هذا ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي قتادة بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

"إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي، فأتجاوز (أي أخفف) في صلاتي كراهية أن أشق على أمه".

وروى البخاري عن أبي قتادة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها.

وأخرج النسائي واقعة شبيهة بهذه بالنسبة للحسن أو الحسين وغير هذا من الواقعات التي تبرز رأفة الرسول ﷺ ورحمته بالصغار التي لم تفارقه حتى وهو في صلاته.

وفي كتب السنة أخبار صحيحة بدعوته ﷺ إلى الرحمة بالحيوان، فحديث الرجل الذي سقى الكلب والذي جاء في ختامه: "في كل ذات كبد رطبة أجر"[1]، دعوة صريحة بل أمر بالرفق بالحيوان.

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داوود وابن حبان.



وكذلك حديث المرأة التي حبست هرة حتى ماتت جوعًا فعذبها الله بالنار، وحديث سهل بن الحنظلية الذي رواه أبو داود: قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال:

"اتقوا الله في هذه البهائم، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة"، وقد نهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ الحيوان، كل الحيوان، غرضًا للرماية فقال: "لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا"(١).

هذا قليل من كثير من وصايا رسول الله ﷺ في الرحمة بالحيوان وهي ترشد إلى الرأفة به وإطعامه وسقيه، والامتناع عن تعذيبه، بل وحتى عن إيلامه بخدش الضرع عند الحلب، وتأمر بالإحسان في كل شيء حتى عند القتل وعند الذبح: "إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته"(٢).

نعم، إن هذه الوصايا وتلك الأعمال لا تصدر إلا عن قلب من وصفه الله بالرحمة والرأفة، وإذا كان القرآن الكريم قد وصف الرسول ﷺ بأنه (بالمؤمنين رؤوف رحيم)، كان على المؤمنين أن يقتدوا بالرسول ﷺ في رأفته ورحمته، الشاملة بالناس وسائر المخلوقات، بل وفي كل أخلاقه التي امتدحه الله بها في قوله سبحانه في سورة القلم:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾(٣)

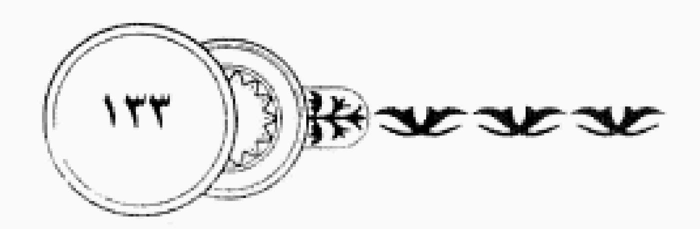
ولقد قرر القرآن الكريم أن الاقتداء بالرسول ﷺ من فروض الإيمان بالإسلام ذلك مقتضى قول الله سبحانه:

---

(١) رواه أبو داوود وابن خزيمة.

(٢) رواه مسلم والنسائي وابن ماجه.

(٣) الآية ٤ من سورة القلم.



﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1]

وهذه الأسوة تتحقق في اتباع أقواله وأفعاله بوجه عام، والنزول في الأسوة عند قول الله سبحانه:

((وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ))[2]

فهو ﷺ الأسوة الحسنة في أقواله وأفعاله وتقريراته وسلوكه وقيادته لأمته، حيث كان رءوفًا رحيمًا، أطلعه الله على المنافقين في المدينة وعداوتهم، ولكنه تركهم كراهية أن يقال إن محمداً يقتل أصحابه، ومن أجل أن يتآلف القلوب طبعه الله على حسن السياسة وبسط الوجه والبشاشة للقريب وللبعيد وللمسلم ولغير المسلم وللصديق وللعدو، رجاء أن يؤلف القلوب على الإيمان.

نعم، هو الأسوة الحسنة:

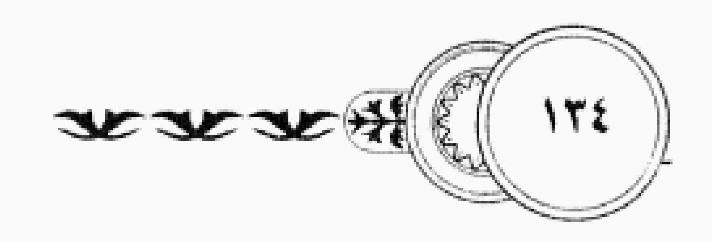
((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ))[3]

---

(١) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

(٢) من الآية ٧ من سورة الحشر.

(٣) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.



(٢) رحمته ﷺ بالمؤمنين

تحدث القرآن عن رحمة الرسالة الإسلامية وأصل هذه الرحمة، وبينها في آيات عديدة وبأساليب متنوعة لتعليم الناس أن الإسلام - عقيدة وشريعة - جاء رحيماً بعباد الله، ميسراً غير معجز ولا معسر، يرفع الحرج، ويرعى الضرورات. ففي سورة البقرة قول الله سبحانه:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (١)

وقوله سبحانه:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

وفي سورة النساء قوله تعالى:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1]

وليس حديثنا اليوم عن رحمة الرسالة استقصاء لمجالات هذه الرحمة، وإنما تلميحات للاستذكار، لأن الرسالة كلها رحمة على ما تشير إليه آيات القرآن، ففي سورة المائدة قوله تعالى:

((مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ))[2]

وفي سورة الأنبياء قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[3]

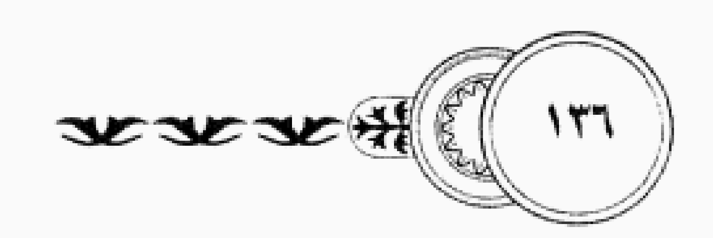
وفي السنة الشريفة، روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: "إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، ألا إن الله قد فرض فرائض، وسن سننًا وحد حدودًا، وأحل حلالاً، وحرم حرامًا، وشرع الدين فجعله سمحًا، واسعًا، ولم يجعله ضيقًا."

وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب، إذ هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي ﷺ: "مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه."

(١) الآية ٢٨ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٦ من سورة المائدة.

(٣) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.



تلك آيات من القرآن قد بينت أن شريعة الله رحمة للناس، وهذه مثل من سنة رسول الله ﷺ قد فصلت بعض مجالات هذه الرحمة واليسر ورفع الحرج.

ولقد شملت رحمة الرسالة كثيراً من المجالات التي جاءت فيها التكاليف، فهي في ذاتها رحيمة بالناس في كل ما جاءت به.

ففي العبادات، فرض الله ما يطيقه الناس؛ فالصلاة ـ وهي عماد الدين ـ تقصر الأربع في السفر إلى اثنتين، وفي حال الخوف تصلَّى رجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ويسقط القيام بها لعذر المرض، فيصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات وفي هذا قال ﷺ: "بعثت بالحنيفية السمحة".[1]

وأخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما خُيِّر رسول الله ﷺ في أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه من شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لحرمة الله."

وفي الطهارة فرضها بالماء، فإن تعذر كان التيمم بالتراب الطاهر.

وفي الصلاة، عاتب رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه حين قرأ في الصلاة سورة البقرة والنساء، وشكا الناس من طول صلاته. فقال الرسول ﷺ: "أفتان أنت يا معاذ؟ (ثلاث مرات) فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة."[2]

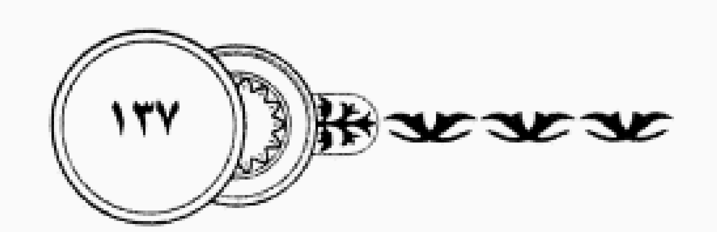
ولقد راعى حاجات الناس وأعذارهم.

فقد أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدأوا بالعَشاء ولا يعجل حتى يفرغ منه".

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.



وفي تأخير الصلاة إذا اشتد الحر أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم".

ومعناه الإذن بتأخير صلاة الظهر عن أول وقتها حتى تذهب حدة الحر.

ولكن، لا بد من الحرص على أدائها في الوقت المحدد؛ أي أن الأداء في هذه الحالة على التراخي لا على الفور.

وفي المعاملات، جاءت قواعد الإسلام رحيمة ميسرة لا غل فيها ولا استغلال، تقوم على التعاون في مواجهة مطالب الحياة.

ومن ثم، كانت الدعوة إلى العمل والكسب الطيب مقرونةً بالصلاة، وكثيرًا ما جاء الحث على العمل قرين الإيمان.

على أنه لا يغيب عن الأذهان أن وصف العمل في القرآن بالصالح لا يعني تمحضه للعبادات المفروضة فحسب، بل يعني كل عمل يصلح من ذات العامل ومجتمعه.

وفي هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها قول الله سبحانه في سورة الكهف:

((وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ))[1]

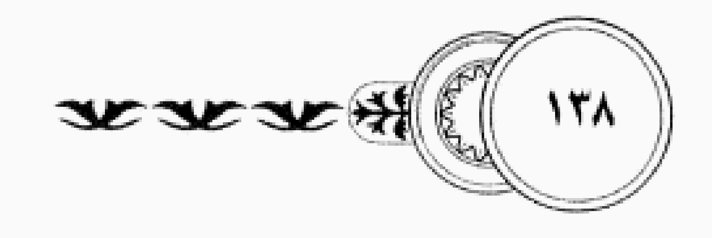
وفي سورة طه:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾[2]

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٨٢ من سورة طه.



وقوله سبحانه في سورة الجمعة:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(١)

وإذا تتبعنا مجالات التعامل في المجتمع، سنجد القرآن الكريم قد جاء بأحكامها رحيمة ميسرة؛ فقد نوه بالعدل والرحمة، وبالبر بالوالدين وبذي القربى وبالجيران وباليتامى والفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وبالضعفاء بوجه عام.

وفي السنة الشريفة الكثير الوفير من وصايا الرسول ﷺ بالرفق والرحمة في كل الأمور.

وفي العقوبات كانت شريعة الإسلام أخف مما سبقها من الشرائع السماوية، فالتوبة مثلاً كانت بقتل النفس كما حكى القرآن:

((فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ))(٢)

أما التوبة في الإسلام فتكون بالندم على فعل السيئات والاستغفار والعزم على عدم العودة كما جاء في القرآن في قوله تعالى في سورة طه:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾(٣)

---

(١) الآية ١٠ من سورة الجمعة.

(٢) من الآية ٥٤ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٨٢ من سورة طه.





العدل في القرآن

العدل ضد الظلم ومادة عدل من الألفاظ المشتركة. وفي هذا المقام، يقال عدل في الأمر عدلا وعدالة المعنى استقام، وعدل في حكمه: حكم بالعدل.

وهذا المعنى هو موضوع هذا الحديث ولقد شاءت إرادة الله وعدله أن تكون شريعة الإسلام بما جاءت به من نظم وأحكام ومبادىء هي شريعة الله لكل الناس، وإذ هي شريعة كاملة استوعبت بأحكامها ومرونتها جميع ما حدث ويحدث للناس من أقضية ووقائع وما يجد من مصالح.

ولقد حث الله في القرآن الكريم على العدل بين الناس وجاء بمبادىء هامة تستقر عليها العدالة.

ففي سورة المائدة:-

((وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ))[1]

وفي سورة النساء:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾[2]

وفي ذات السورة:

((۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ))[3]

---

(١) من الآية ٨ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

(٣) من الآية ٥٨ من سورة النساء.

هذه مبادىء للعدل وللعدالة وجهت إليها هذه الآيات، حيث أمرت بأداء الشهادة على وجهها الحق حفاظًا على إظهار حقوق الناس ومنعًا من إهدارها وأنه لا ينبغي أن يكون بغض قوم مدعاة للميل عن طريق العدل معهم بل يجب التزام جانب العدل لأنه أقرب سبيل إلى خشية الله. وأن العداوة لا تخل بالعدالة التي هي نظام هذا الوجود كما أن العدل لا يكون عطفًا على فقير أو استجابة لرغبة غني، وإنما العدل لذاته حتم حتى تستقيم أمور الحياة وتستقر الحقوق.

وفي سورة الأنعام لون آخر من العدل هو العدل في القول، يقول الله سبحانه:

((وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ))(١)

فلا ميل عن العدل بسبب قرابة أو معاهدة أو أية عواطف ومصالح مما يتبادله الناس ولقد نبه القرآن إلى أن موازين العدل ستقام يوم القيامة ليحاسب كل إنسان عن كل كبيرة وصغيرة اقترفها في الدنيا، وعندئذ لا ظلم ولا محاباة. ذلك قول الله سبحانه في سورة الأنبياء:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٢)

ولأهمية العدل بين الناس لاستقامة حياتهم، جاء القرآن مخاطبًا الرسول ﷺ بإقامته مخصصا بعض القضايا الهامة بالذكر. ذلك قول الله تعالى في سورة المائدة:

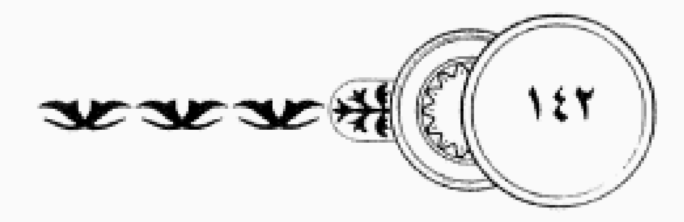
((فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ))(٣)

---

(١) من الآية ١٥٢ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء.

(٣) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.



وقال تعالى:

((وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ))(١)

وفي سورة النساء:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾(٢)

فهذه الآيات جاءت صريحة في الدلالة على وجوب الحكم بما أنزل الله سبحانه لاشتماله على كل ما هو حق.

وآيات أخرى في القرآن جاءت محذرة بحال الشعوب التي حادت ـ أي بعدت ـ عن العدل، فكان مصيرها الهلاك والانقراض.

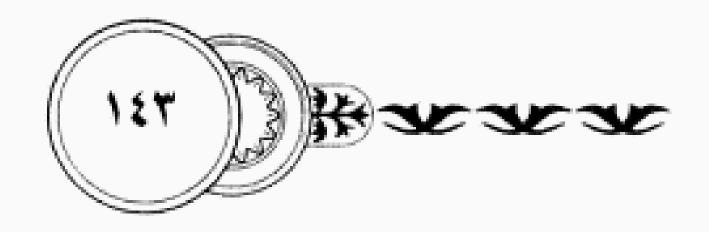
وفي حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الشيخان في خطبة له:

"أيها الناس: إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها".

ولقد أرسى الرسول ﷺ قواعد إقامة العدل بين الناس وبعث القضاة بعد أن استوثق من صلاحيتهم لهذه المهمة. فقد أرسل عليَّ بن أبي طالب قاضيا على اليمن ثم أرسل معاذ بن جبل وسأله: "كيف تقضي يا معاذ إذا عرض لك القضاء"؟

(١) من الآية ٤٩ من سورة المائدة.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة النساء.



فقال: أقضي بكتاب الله. قال: "فإن لم يكن في كتاب الله"؟ قال: فبسنة رسول الله. قال: "فإن لم تجد"؟ قال: اجتهد رأيي ولا آلو[1] فسر رسول الله ﷺ بهذا الجواب.

ولقد عين الرسول ﷺ قضاة في المدينة في حياته حتى يمارس الناس العدل وإقامته تحت رقابته ومراجعته.

وجاء في أحاديثه ﷺ من القواعد الموضوعية والإجرائية ما يؤصل العدالة ويوصل إليها، فقد أرشد الناس إلى أن للشريعة الإسلامية أصلين يرجع إليهما فقال: "لقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنتي"[2].

ويقرر ﷺ أنه حين يقضي بين الناس، إنما يقضي بوصفه بشرًا يستمع إلى طرفي الخصومة وإلى أسانيدهم وإلى مرافعاتهم ثم يقضي وفقا لما ينتجه الدليل السليم المقبول لأيهما المدعي أو المدعى عليه.

فيقول ﷺ:

"إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل أحدكم يكون ألحن بحجته من الآخر فاقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار"[3].

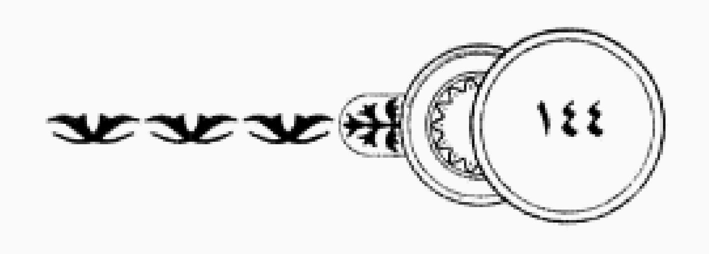
وبهذا، يتضح حكم الإسلام في أن قضاء القاضي لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالاً وأن على المتقاضين مراقبة الله عند أخذ الحقوق بناءً على حكم القضاء لأنهما قطعًا يعلمان أين الحق في الخصومة. وهذا لا ينفي أن الحكم القضائي

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي.



عنوان ظاهر للحقيقة.

ولقد جرى الخلفاء الراشدون على اقتفاء سنة الرسول ﷺ في القضاء وإقامة العدل فكانوا يبحثون عن أحكامه فيما عرض عليه من قضاء، كما كان كل واحد منهم يسأل عن سوابق قضاء من سبقه من الخلفاء طلبا لاستقرار المبادىء القضائية التي يحتذيها القضاة، لا سيما تلك المبادىء التي تفسر نصًا موضوعيًا أو إجرائيًا تفسيرًا تستقر عليه مصالح الناس ويوفر جريان العدالة إلى كل الناس وفي كافة الحقوق.



استقامة الكلمة وانحرافها

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يستقيم العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جاره بوائقه".

لقد أنعم الله على الإنسان بأنعمه التي لا تحصى، ومن أهم ما أختصه به الله سبحانه دون سائر المخلوقات نعمتان، إحداهما: العقل الواعي المدرك، والنعمة الأخرى: اللسان، أي المنطق والكلام والقدرة على التعبير. الأولى مستورة في داخل كل إنسان، والأخرى ظاهرة، وجارحة من الجوارح، ولكنهما مع هذا متلازمتان ويندر انفصالهما، ومِنْ تَتَبُّعِ انفعالات الإنسان - أي إنسان - نرى أن القلب والوعي والإدراك أساس وأصل، ولكنه لا يُعرف إلا بالكلام باللسان.

وقد ربط الإسلام بين اللسان والقلب، فالإيمان عمل قلبي، والنطق بالشهادتين «تعبير عنه»، وكأنَّ مناط الثواب على ما يصدر عن اللسان من خير وبرّ، وصدق واستقامة وهدي وإصلاح، وكان ما يظهر دليلاً على ما وقر في القلب، وقد قيل تمكيناً لهذه الرابطة بين القلب واللسان: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

ولقد اهتم الإسلام باللسان، واتجه به إلى الصلاح والسداد، إلى الخير، وحذَّره من الفساد والشر.

ويدلنا على مدى عناية الإسلام باستقامة الكلمة هذا الحديث الشريف الذي قرر أن استقامة الإنسان رهن باستقامة القلب واللسان لأنهما مترابطان، وكان حصاد اللسان محسوبا على الإنسان، ألا ترى إلى قول الله تعالى:

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[1]

---

(١) الآيتان ١٧و ١٨ من سورة ق.

لابد للإنسان ـ كل إنسان ـ من تهذيب لسانه، لأنَّ به حفظ كيانه وصلاح دينه ودنياه، وَعُنِيَ الإسلام بتوجيه اللسان إلى الخير باستعماله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بحفظه ومنعه من الشر والسوء، وكفه عن الفساد والأذى، وإن لم يكن شيء من ذلك كان السكوت والإنصات، ذلك ما رواه البخاري وغيره من حديث الرسول ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت" (أو ليصمت).

وجاء عقبة بن عامر رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ يسأل عن طريق النجاة وأسبابها فقال: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: "املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك"[(١)].

فمهمة اللسان جليلة، ذات ثمار يانعة وفضائل جمة، والإنسان العاقل يحرك لسانه في مرضاة الله التي تتسع للتعامل مع الله بعبادته ومع المجتمع الصغير والكبير بالأخلاق والصدق والأمانة.

فلنستعمل اللسان في أشرف نطق في العبادة والعمل، ولنحذر آفات اللسان، تلك التي تضر بالإنسان والأمة ضررًا يفوق السلاح، ولنقرأ ما رواه البخاري ومسلم من قول الرسول ﷺ: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب"[(٢)] ، وفي رواية لابن ماجه: " إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يرى بها بأسا يهوي بها في نار جهنم سبعين خريفًا".

إن آفات اللسان تفسد المودَّة وتذهب بالرحمة وتثير الأحقاد والاضطهاد وتحرك الفتن وتفتك بوحدة الأمة. فلنحفظ اللسان. ولنستعمله في الخير، ولنكفه عن المحرمات «والموبقات»، وهذا مؤدَّى ما قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما

(١) رواه أحمد والترمذي.
(٢) اللفظ هنا لمسلم.

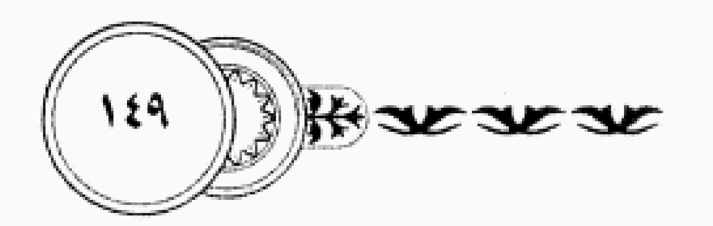
يخاطب لسانه: ويحك قل خيراً تغنم، أو اسكت عن سوء تسلم، وإلا فاعلم أنك ستندم.

هذا، وإنَّ مسؤولية الكلمة في الإسلام على هذا الوجه تنسحب إلى وسيلة إبلاغها وإعلانها على الناس أيًّا كانت الوسيلة، صحافة أو إذاعة مسموعة أو مرئية، أو مُؤَلَّفًا ينشر على الناس، وليست قاصرة على قولة اللسان.

فالإسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحث دائمًا على قول المعروف:

((ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ))[1]

(١) من الآية ١٢٥ من سورة النحل.



الإيثار

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وبعد.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً بات به ضيف، فلم يكن عنده إلا قوته، وقوت صبيانه؛ فقال لامرأته: نوِّمي الصبية، واطفئي السراج، وقربي للضيف ما عندك. فنزل قوله تعالى: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[1].

وقيل: إنها نزلت في شأن الأنصار الذين آثروا المهاجرين بأموالهم وديارهم: قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2]

فالإيثار هو تقديم الغير على النفس في حظ الدنيا رغبة في حظ الآخرة، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، والصبر على المشقة، والإيمان بالثواب الجزيل من الله.

ولقد تخلق النبي ﷺ بخلق الإيثار، ودعا أصحابه إلى هذا الخلق، فاستجابوا لله والرسول، فعاشوا في ظلٍّ ظليل، وعيش رغيد، وتمتعوا بصحة نقية طاهرة، وبيئة صالحة، قلوبهم طيبة، ووجوههم ضاحكة مستبشرة. قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[3]

---

(١) رواه أحمد في صحيحه، والترمذي في سننه عن أبي هريرة.

(٢) الآية ٩ من سورة الحشر.

(٣) الآية ١٠ من سورة الحشر.

وقد كان رسول الله ﷺ سبَّاقًا إلى ما يدعو إليه ويأمر به، فإذا قصده أحد في شيء وهو المحتاج إليه أعطاه إياه رغبة في فعل الخير.

وأصحاب الرسول ﷺ ضربوا أروع المثل في هذا، فكان اغتباطهم أكبر وأعظم، حينما يؤثرون الغير على أنفسهم، ولقد كان لهذا الإيثار أعظم النتائج في نشر الإسلام، فقدموا أرواحهم فداء للإسلام وصاحب الرسالة محمد ﷺ.

والمسلمون بفضل ما رسخ في قلوبهم من عقيدة تحث على البذل والبر، والتراحم، والتعاطف. لم يكتفوا ببذل الطعام والشراب للغير، وإنما آثروا إخوانهم على أنفسهم، وقدموا ما يمسك حياتهم وإن كانوا في أشد الحاجة إليه.

قال تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾(١)

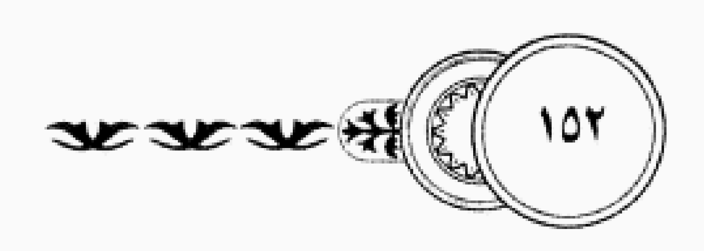
أي يطعمون الطعام وهم في محبة له وشغف به لحاجتهم إليه. ولقد وجد في المجتمع الإسلامي كثير من المؤمنين الذين سمت فطرتهم، وارتفعت غرائزهم، يؤثرون غيرهم بطعامهم وشرابهم، رغم ما يواجهونه من صعاب، وما يتحملونه من أعباء، رجاء رحمة الله، وابتغاء رضوانه.

قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾(٢)

(١) الآية ٨ من سورة الإنسان.

(٢) الآية ٢٠٧ من سورة البقرة.



أي ومن الناس فريق يبيع نفسه لله، لا يبغي ثمنًا لها غير مرضاته، فإذا آثر المسلم أخاه بما عنده، وقدمه على نفسه انغرست شجرة الأخوة والتراحم بين المسلمين جميعًا، فتوحدت صفوفهم، وعزت كلمتهم، وأصبحوا أمة قوية، وكتب الله لهم النصر.



العفو

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وبعد.

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1]

يري العلماء أن هذه الآية تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقوله: (خذ العفو) دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين؛ ودخل في قوله: (وأمر بالعرف) صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام. وفي قوله تعالى: (وأعرض عن الجاهلين) الحض على التخلق بالحلم والإعراض عن أهل الظلم والتنزه عن منازلة السفهاء، مع الأخذ بالأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

وقال جل شأنه:

((فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[2]

وفي هذا إشارة إلى أن المؤمنين ـ على قلّتهم ـ هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح إنما يطلب من القادر.

ويروي أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق"[3].

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة.

(٣) ذكره البخاري في الأدب المفرد.

فالعفو في الإسلام يبرز إلى حد كبير في سمات المنهج الإسلامي في قيادة البشرية وتوجيهها وضبط سلوكها وربطها بالمثل العليا والصلات الرفيعة والخلق الرشيد.

ورسولنا الكريم يحض على العفو ويرغب فيه، وفي ذلك ما روي أن جبريل نزل على النبي ﷺ بآية:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[١]

فقال ﷺ: "ما هذا يا جبريل"؟ فقال: لا أدري حتى أسأل العالم (وفي رواية حتى أسأل ربي)، فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك وتعفو عمَّن ظلمك[٢]. فوجه الرسول ﷺ صحابته إلي هذا الخلق الرفيع، فكانوا كما وجههم في اتزان وانضباط واعتدال وعفو وإحسان، مصداقًا لقوله تعالى في سورة آل عمران:

((وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ))[٣]

إن العفو يعيد إلى العلائق حياتها، ويفعل في النفوس ما لا تفعله السيوف، فإذا البعيد قريب، قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[٤]

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي.
(٣) من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.
(٤) الآية ٣٤ من سورة فصلت.

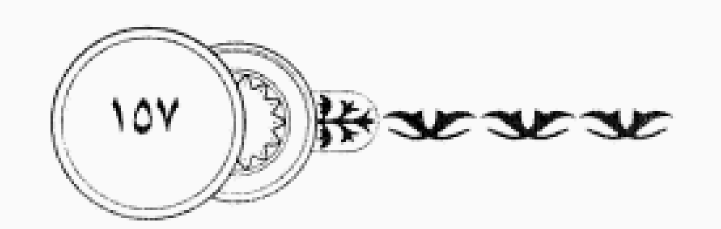
فلا شيء كالعفو أسرع بالإنسان إلى عفو الله ومغفرته، ولا يصنع امرؤ في الدنيا خيرا، ولا يقدم مؤمنٌ صنيعًا إلاَّ ويجد الجزاء عليه جزيلا في الآخرة يأتيه وهو أحوج ما يكون إليه.

قال رسول الله ﷺ: "من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعطي من حرمه ويصل من قطعه"[1].

فما أروع العفو وما أعظم نتائجه على حياة الفرد والأسرة والمجتمع والأمة في الدين والدنيا والآخرة.

---

(١) رواه الحاكم.





الفهرس الموضوعي

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام أرض اللواء المهندسين - تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨٠ - ٣٢٥١٠٤٣